8me Année No. 350

Lundi - 18 - 3 - 1940

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ٣٥٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ صفر سنة ١٣٥٩ — الموافق ١٨ مارس سنة ١٩٤٠ » السنة الثامنة

بعد اسدال الستار على مأساة فنلندا

فشل العقـــــل . . .

فشل العقل فى السياسة كفشل القلب فى الطب معناه الانخذال والانحلال والموت . وليس فى مقدورنا نحن أصحابَ الكلام وأرباب الأقلام إلا أن نصنع ما يصنع صاحب القصر الأبيض فى واشنطون ورب القصر المقدس فى روما : نصوغ اللفظ والدمع مرائى ومآسى وأكاليل كما فشل الضمير والعقل، فمات بفشلهما الحق والعدل ، وكان لذلك ضحايا من الأمم والناس ذهبوا أشلاء ودماء بين الألم والعَدم !

أُسدل الستار الختامى أول أمس على المأساة الفنلندية الفاجعة بعد ما ظلت ثلاثة أشهر ونصفاً تمثل على مسرح من الجليد والدم اصطرعت عليه القوة والحق، والبغى والعدالة، والكثرة والشجاعة، والنذالة والحميّة ، والعالم كله يشهد هذا الصراع الهائل وهو شاخص البصر مشدوه اللب لا يملك إلا التصفيق للبطل والتصفير للنذل !

كان كل واحد من الفنلنديين أمام ستين من الروس ! وكان هذا الواحد ضئيل الحظ من الميرة والذخيرة والسلاح والمدد ؛ وكان هؤلاء الستون وراء صفوف متلاحقة من آلات الحديد والنار ، ومع ذلك استطاع هذا الواحد أن يمعن فى أولئك

الفهـــرس

١٤ ـ ٣١

الستين تقتيلاً وتنكيلاً وأسراً ، وهو يغوص فى الثلج ويكز من البرد ولا يكاد يجد الدفء ولا القوت ولا النوم !

ذلك هو الإيمان الصادق الصابر الذى يأذن به الله أن تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة . وتلك هى البطولة القائمة على عزة النفس وكرامة الجنس وإيثار التضحية وتقديس الوطن . فلو أن العقل السياسى فى جارتى فنلندة ساعد هذه المزايا النادرة فنهضتا لمناصرتها، ومكنتا الحليفتين من مؤازرتها ، لخنس ستالين خنوس الجبان ، وذلت البلشفية ذل الأبد !

***

حاربت فنلندة مكرهة ثم سالمت مكرهة . أكرهها أعداؤها على الحرب ، وأكرهها أصدقاؤها على السلم ، فدافعت عظيمة، ثم صالحت كريمة . والجانى عليها فى الحالين هو فشل العقل فيمن عادى وفيمن صادق . فلو أن ستالين لم يصب باحمرار العقل فى مفاوضته لفنلندة قبل الحرب ، لظفر منها بخير مما ظفر به بعد الصلح . إنه اقتطع من الوطن الفنلندى مقاطعات عزيزة ، ولكنه أخذها بعد أن جعلها المرشال البطل مانرهايم مقبرة هائلة ، دفن فيها مائتى ألف جندى من الروس معهم ألف وخمسمائة دبابة وسبعمائة طائرة ؛ وكل أولئك مكفن بهيبة الجيش الأحمر وكرامة قواده وقيمة عتاده !

ولو أن الدول الشمالية لم تصب بشلل العقل لفكرت قبل هذه الحرب أو أثناءها فيما تفكر فيه اليوم من التحالف العسكرى بينها ، فإن ذلك كان عسيًّا أنه يشفى الدب من غروره ويكسر من طماحه

ولو أن الدول الديمقراطية لم تصب بتردد العقل لخرقت حياد السويد والنرويج لتدفع الموت المحقق عن الجارة الباسلة الصغيرة . وهل عليك من بأس إذا وطئت حمى الجار لتطفئ الحريق فى بيت جاره ؟

***

إن فنلندة حاربت فى سبيل الحق والسلام والمدنية ، وكان لها على المجاهدين فى هذه السبيل الحفيظة والنصرة . ولو لم يكن لها وللحلفاء قضية عادلة مشتركة توجب التضامن والتعاون، لكان من شهامة الطبع المدنى ألا يدعوا هذه البطولة العجيبة التى أدهشت العالم فى مغربى الأرض ومشرقيها تيأس من النصير فتستكين للغالم وتستنيم للمذلة !

فما أحرى الذين فرطوا فى جنب فنلندة بالأمس أن يتداركوا عواقب تفريطهم اليوم ! لقد تثاقلوا عن إسعافها حتى اندك القائم وأقفر الآهل وأجدب الخصيب ، فأصبح أربعمائة ألف من أهلها لا يجدون مورداً ولا مأوى . إنهم ساعدوا العدو سلباً على التدمير ، فليساعدوها إيجاباً على التعمير . ومن لم ينهض ليقيك الطعنة النفاحة ، فلا أقل من أن يساعدك عليها بالضماد والمرهم

هذا أوان الثمر المرجو من عطف الديمقراطية فى أوربا وأمريكا على فنلندة البائسة . ولن يخالجنا الشك فى أن دعاة الحرية وحماة المدنية سيذكرون اليوم أن فنلندة أصيبت بنقص شديد فى الأنفس والأموال والثمرات ، ففقدت من شبابها البر العامل خمسين ألفاً بين قتلى وعجزة ، وخسرت من ثراها الغالى المثمر ثلاثين ألف كيلو متراً من أزكى الأرض تربة وأوفرها ثروة . وسيذكرون غداً متى جلسوا للصلح على أنقاض البلشفية والنازية أن صلح فنلندة قد انعقد على دخن، وجرحها قد اندمل على بغى[1] ، وسيرون يومئذ أن هذا الجرح لا يزال تحت جلبته[2] الخادعة يجيش ويقيح ويضطرب . فهى حرية أن تعد محاربة معهم بالقوة ، وإن لم تستطع مباشرة هذه الحرب بالفعل

***

إن فى أخطاء الناس وأرزاء القدر عبراً لا تنقضى الإفادة منها . فاستشهاد بولندة واستخذاء فنلندة نذيران الأمم الصغيرة بخطر التواكل والتخاذل والعزلة . وقد قلنا مرة فى هذا المكان إن سياسة الاتحاد هى وحدها الأمان من سياسة السمك . فإذا أرادت الدويلات المتجاورة التى حكمت عليها الطبيعة بالضعف لقلتها أو جهالتها أن تحفظ على نفسها الحياة وتضمن لشعوبها الحرية ، فليس لها غير سبيل الولايات المتحدة الأمريكية ؛ فإن فى الاتحاد القائم على صلات الدم والروح والجوار الخير المتصل للعالم ، والضمان الدائم للسلام !

احمد حسن الزيات

(١) انعقد الصلح على دخن أى على حقد ، واندمل الجرح على بغى أى على فساد (٢) الجلبة : القشرة التى تعلو الجرح عند البرء

في أرجاء سينـــاء

للدكتور عبد الوهاب عزام

- ٢ -

من أبي زنيمة إلى الدير

خرجنا من أبي زنيمة والساعة ثمان من صباح الثلاثاء ثالث عشر ذي الحجة، فسرنا على الساحل بين البحر عن يميننا والجبل عن يسارنا صوب الجنوب زهاء أربعين دقيقة، ثم ملنا ذات اليسار تلقاء الشرقية في سهل واسع كثير الحجارة والتلال قد استبانت فيه الطريق واستقامت، فأسرعنا عشر دقائق حتى بلغنا وادياً تشرف على جانبيه جبال رملية مصفرّة ثم جبال حمراء شاهقة، أدّى بنا إلى صخور عظام عليها نقوش بخط سرياني، فنزلنا عندها قليلاً والساعة عشر، ثم ركبنا فمررنا بعد ساعة بواحة ناضرة جميلة وجبال رائعة شاهقة محمرّة لا مختلطة الألوان.

وجبال سيناء كثيرة الأشكال والألوان، قد ألحّت عليها الشمس والرياح والأمطار على مرّ العصور تحطيماً وتشكيلاً وتلويناً، فما يزال الرائي في عجب من اختلاف مرائيها وكثرة أشكالها. وقد وجدت فيها تفسيراً بيّناً للآية:

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء»

وبعد نصف ساعة من الراحة الأولى رأينا أشجاراً ونخيلاً تملأ الوادي، فعرفنا أننا في وادي فاران. وبعد مسيرة خمس دقائق في هذه الخضرة بلغنا ديراً عليه سور قصير وفيه حديقة، وهو دير فاران التابع لدير سنت كترينا الكبير. نزلنا هناك لنستريح في الدير ونرى ما فيه.

دخلنا الدير فرأينا مجرى ماء بارد عذب، فعرفنا أنه ينبوع الحياة في هذه الواحة الكبيرة. وصعدنا على سفح الجبال المشرفة على الدير فإذا بناء قديم من اللبِن مهدّم هو بقية كنيسة. ورأينا على عدوة الوادي الثانية وفي بسطته أنقاض أبنية وآجر وحجارة منثورة قيل إنها آثار مدينة فاران، وصوامع كانت لتعبد الرهبان فيه

وهي على ١٢ كيلاً شمالي الطور وعلى ١٣٠ كيلاً إلى الجنوب والغرب من قلعة النخل



في وادي فاران

وهي مذكورة في التوراة في أخبار إبراهيم وموسى. ففي سفر التكوين أن اسماعيل سكن برية فاران وأخذت له أمه زوجة من مصر. وفي التثنية: «هـذه هي البركة التي بارك فيها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران ...»

وعلى مقربة من الوادي جبل شاهق جداً يفرع الجبال كلها يسمى جبل سربال، ويقال إنه جبل المناجاة الذي تجلى فيه الله سبحانه لموسى عليه السلام

وبعد أن طعمنا خرجنا من الدير والساعة واحدة بعد الظهر فسرنا بين أشجار ونخيل متكاثف خمساً وعشرين دقيقة بالسيارات. ورأينا على عدوة الوادي اليسرى أنقاباً في الجبل، يقال إنها قبور قديمة كان أهل فاران يدفنون موتاهم فيها

والنخيل في هذا الوادي متروك بطبيعته لا يؤبر ولا يقلع

فسيله فترى نخلات كثيرة من أصل واحد، وترى جريد النخلة أو كربه يابساً حول جذعها طبقات بعضها فوق بعض لا يقطع ولكن يجف فيسقط أو يبقى معلقاً في الجذع

وقد سألت رجلين هناك: لماذا لا تقطعون الجريد؟

قالا: لنصعد عليه.

قلت: إن النخل لا يثمر كثيراً إذا لم يقطع جريده كل عام. هل تعرفون ما يفعل أهل مصر بالنخيل؟

قالا: نعم.

قلت: فلماذا لا تفعلون فعلهم فيكثر ثمر نخيلكم؟

فسكتا.

وبعد خمسين دقيقة من فاران، رأينا أشجاراً كثيرة من الطرفاء، ثم سرنا في أرض جرداء إلى أن مررنا بجبلين متقاربين مشرفين على الطريق، بينهما ممر ضيق يسمى «بويب فاران»؛ ثم عطفنا إلى اليمين إلى واد يسمى «وادي الشيخ»، أو وادي النبي صالح، وسأذكره فيما بعد.

وجئنا إلى أرض مرملة ساخت فيها بعض السيارات وتقدمت السيارات التي تجنبت هذه الورطة، فوقفنا عند تل عليه مقابر وقباب من الطين فيها بعض القبور، وكنيسة وقبر يقال إنه قبر هارون عليه السلام، وينشعب الوادي وراء هذا التل إلى اليسار، فيرى السائر جبالاً شاهقة جداً، بينها واد ضيق ينتهي إلى بناء كبير أبيض يلوح من وراء الشجر ويتضاءل على ارتفاعه بجانب الجبال الشاهقة المشرفة عليه، وهذا الدير «دير سنت كترينا»

وقبل أن أصفه، أنقل ما ذكره صاحب مسالك الأبصار نقلاً عن الشابشتي:

وهذا الطور هو طور سيناء الذي صعق عليه موسى عليه السلام. والكنيسة في أعلى الجبل، مبنية بحجر أسود، عرض حصنه سبعة أذرع، وله ثلاثة أبواب من الحديد، وفي غربيه باب لطيف، وقدامه حجر لقيم، إذا أرادوا رفعه رفعوه، وإذا قصدهم متغلب أرسلوه، فانطبق، فلا يعرف أحد مكان الباب. وداخلها عين ماء، وخارجها عين أخرى.

قال:

«زعم النصارى أن بها من أنواع النار الحديدة التي كانت ببيت المقدس، يوقدون منها في كل عشية السراج، وهي بيضاء ضعيفة الحر، لا تحرق. ثم تقوى إذا هم أرادوا أن يوقدوا منها»

وهو عامر بالرهبان. فلا يخلو من أحد من أهل البطالات للتفرج فيه والتبرك — على رأيهم — به

وهو من الديارات الموصوفة والأماكن المقصودة. وممن وصفه ابن عاصم. قال فيه:

يا راهبَ الدَّيرِ، ماذا الضوءُ والنورُ
فقد أضاء بما في دَيْرِك الطورُ؟
هل حلَّتِ الشمسُ فيه دونَ أبرُجِها
أو غُيِّبَ البدرُ فيه فهو مستورُ؟
فقال: ما حلَّه شمسٌ ولا قمرٌ،
لكن يُقرَّبُ فيه اليومَ قَوْرِيرُ!

عبد الوهاب عزام

الحرب ومستقبل الإنسان

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

كلما قرأت أن الحكومة تجرب أسباب الوقاية المدنية من الغارات الجوية ، أو رأيت خندقاً محفوراً وعلى جانبيه أكياس الرمل ، أو سمعت صفارة تنطلق بالإنذار والدعوة إلى الاختباء وإطفاء الأنوار ، أرانى أتساءل : « أترى سيعود الإنسان إلى حياة الكهوف والغيران ؟ » ولست أعنى الكهوف بالمعنى الحرفى ، وإنما أعنى الحياة فى جوف الأرض . وماذا يكون مصير الإنسان يا ترى إذا دفعه الترقى فى القدرة على التخريب إلى باطن الأرض ؟!

وتذكرت ه . ج . ولز وكتابه « آلة الزمان » وهى آلة يتصور الكاتب أن صانعها يذهب بها مطوفاً فى الزمن (فى الماضى أو المستقبل كما يشاء) كما نذهب الآن شرقاً أو غرباً وشمالاً أو جنوباً — ويقول ولز إن رحالته بعد أن قطع مرحلة كافية من الزمن الآتى ، ألفى الإنسان قد صار إنسانين — واحداً يعيش فى جوف الأرض وواحداً بقى فوقها . فأما الذى دخل فيها ، وألف الحياة فى السراديب والظلام ، فقد ارتد إلى الحيوانية فى مظهره وطباعه وعاداته ، فهو يمشى على أربع ، وبدنه يكسوه الشعر ، وعينه واسعة ترى فى الظلام ويُعشيها النور ، وتفزعها النار . ولهذا الإنسان السفلى سناعاته وآلاتها ، وهو يستدرج إلى سراديبه أبناء العالم العلوى ويفتك بهم ، ويأكل لحمهم . وأما الذى بقى فوق ظهرها فهذا من سلالة المترفين الأغنياء ، وقد انحط وضعف وتشابه ذكوره وإناثه ، فى اللين وصغر الجسم ، وفَقَدَ القدرة على العمل والاحتيال والسعى ، وصار معوله فى حياته على العالم السفلى ، وخوفه منه ، لفرط ما انتابه من الانحطاط والطراوة

ويقول ولز إن بداية هذا الانقسام ظهرت فى زماننا ، وإن الإنسان شرع ينحدر إلى باطن الأرض . فبُناتنا ومصانعنا لها طبقات تحت الأرض ، وفى عواصمنا تجرى القطر فى سراديب إلى آخر ذلك

وقد كنت وأنا أقرأ كتاب ولز هذا قبل حوالى عشرين عاماً ، ثم وأنا أنقله إلى العربية منذ عامين أو نحو ذلك ، أقول لنفسى إن ولز مبالغ ، وإن الدخول فى جوف الأرض لا يستدعى أن يصبح الإنسان إنسانين متميزين على نحو ما يصف ، وإن الناس يختلفون ويتفاوتون ولكن تفاوتهم لن يبلغ من أمره أن يصير بهم إلى مثل هذا المصير المرعب الذى يصوره ولز كأنه يراه

ثم جاءت هذه الحرب ، وعرفنا ما صنعت الطيارات الألمانية فى بولندا ، وما فعلت الطيارات الروسية بالمدن الفنلندية ، وشهدنا صوراً من آثار التخريب فيما تعرضه دور السينما ، وكنا قبل ذلك رأينا مناظر من تخريب الطيارات اليابانية فى الصين ، ولكن الحرب اليابانية الصينية كانت لبعدها تبدو لى كأنها تدور فى غير كوكبنا ، ولم أكن أتصور أن تدور الحرب على هذا النحو فى عالمنا القريب . ثم أخلفت الحوادث هذا الظن السخيف وغرقت عواصم الأمم المتحاربة وبلدانها الكبيرة فى ظلام دامس ، وقامت حكومتنا تتخذ الأهبة لدفع الأذى عن المدن وأهلها ، إذا امتدت الحرب إلينا فأطفأت الأنوار إلا أقلها ، وحفرت الخنادق ، وبنت المخابئ ، وأطلقت الأنوار الكاشفة فى الليل ، ونصبت المدافع فألفيت نفسى أتساءل : أترانى لا أزال أعد ولز مبالغاً فى التخيل ومشتطاً فى التصور ؟

ماذا تصنع الأمم بعد هذه الحرب ؟ أتظل ترفع البنى وتعليها فوق الأرض وتقيم المصانع على ظهرها ؟ لا أظن ؟ إلا إذا اهتدت إلى مادة لا تنال منها القنابل الهادمة والمحرقة ، وعسير بلوغ هاتيك جداً — كما يقول الشاعر . وهبها فعلت واهتدت ، فإن العلم الذى يوفقها إلى ذلك خليق أن يدلها على ما يهدمه ، فإن البلاء والداء العياء أن كل ما يثمره العلم ، يسخر لأغراض الحرب كما يسخر لأغراض السلم ، فلا سبيل إلى السلامة إلا بالفرار إلى باطن الأرض ، وحرى بذلك أن يكون له أثره فى هندسة البناء ، أو بعبارة أدق فى شيوع طراز جديد ، فقد ظهرت فى البلاد

المحاربة مبان ذات طبقات ممتدة في جوف الأرض يلجأ إليها الناس ويحتمون بها من الغارات الجوية

وفي هذا المعنى يقول الجنرال بوشيرى في فصل له نشرته مجلة Monde Souterratn ونقلته عنها صحف بريطانية « إن الحرب الحديثة تعرض سكان البلاد كلها لأخطار القتال ، وتفرض على الأمم أن تتخذ الأهبة الكافية للدفاع السلبي ، وهذا يستوجب أن تجرى الأعمال الحيوية كلها — من مدنية وعسكرية — في جوف الأرض ، ومن الجلي أن المساكن الجديدة يجب أن تكون لها طبقات سفلية أو متصلة بمبان سفلية مجاورة لها تصلح أن تكون بديلاً من المساكن العلوية ، إذا اقتضت الحاجة الالتجاء إليها »

ونحن أبناء هذا العصر ، نستغرب أن تنتقل حياتنا من فوق ظهر الأرض إلى قلبها ، فإن ظهر الأرض مقرون في أذهاننا بالحياة ، أما باطنها فمقرون بالموت والدفن ، ولكن أحفادنا لن يستغربوا هذا التحول ، أو ينكروه ، لأنهم سيألفونه من الصغر . ويا ليت من يدرى هل تندس المدارس والمستشفيات ، كما تندس المصانع في جوف الأرض ؟ وإلى أي عمق يا ترى يضطر الإنسان أن يحفر وينقب ، ويسوّى ويوسع ؟

وعلى الأيام — بل الحقب الطويلة والأدهار المديدة — يألف الإنسان باطن الأرض ، وتطول حياته فيه ، ويقل خروجه إلى نور الشمس ، وتكر آلاف السنين ومئات الآلاف ، والناس أكثرهم يعملون تحت الأرض ولا يكادون يبرزون إلا في الندرة القليلة والفلتة الفردة . فيكتسب الإنسان خصائص الحيوان الذي يأوى إلى الجحور ، ويصدق ما تنبأ به هـ . ج . ولز في كتابه : « آلة الزمان » !

وكيف تكون الحروب يا ترى في ذلك المستقبل البعيد ، إذا بقيت الحروب تدور بين جماعات الإنسان ؟ أحسب أن اندساس الإنسان في جوف الأرض سيكون بداية انحطاطه ، فما أغرب أن يكون رقيه العلمي مفضياً إلى انحداره وهويّه ؟ وتلك جناية استخدام العلم في الحرب ، فإذا بقيت الحروب فهذا مآل الإنسان ، ولا نجاة له من هــذا المصير إلا بالقضاء على الحروب ، فبما أرى ، أي بإعفائه من بواعث الاحتماء بجوف الأرض والسكون إلى الحياة فيه

مآل الإنسان مرتهن بالسلام الدائم ، لا الطويل فحسب ، على الرغم مما يقال من أن طول عهد السلام يفضى إلى اللين والتطرى والرخاوة ؛ وكفى بالكفاح في سبيل العيش واقياً من هذا التطرى . وعلى أن التطرّى خير ألف مرة من الارتداد إلى الحيوانية . ولأن يكون المرء طرياً ليناً ، آثر عندي من أن يكون أرنباً ! ! واللين عيب أو ضعف في دنيا تقوم فيها الحياة على العنف ، ويكثر فيها الفتك والبطش ، ويحتاج الإنسان فيها من أجل ذلك إلى القوة والخشونة . أما في دنيا تنعم بالسلام ولا يزعجها خوف الفتك وتوقعه ، فما ضير أن يلين الإنسان ويطرى ، إذا بقيت له قوة العقل ؟

ابرهيم عبد القادر المازني

إنما يزدهر الأدب
في عصور الفوضى الاجتماعية

للدكتور زكي مبارك

[بقية ما نشر في العدد الماضي]

أيها السادة :

يقال في كل يوم : إن جوّ مصر معروف بالاعتدال ، فما الذي جنينا في ذلك الاعتدال ؟ كانت النتيجة أن نخاف من الاضطراب في بقاع الأرض. وكانت النتيجة أن نشعر بالغربة حين ننتقل من حُلوان إلى قَليوب . وكانت النتيجة أن تخمُد العواطف بفضل ما نحن عليه من قرار وسكون

أعترف بأن مصر استفادت من اعتدال الجو فائدة عقلية ، هي التفوق العظيم في التأليف ، فمصر أقدر الأمم الإسلامية والعربية على التفكير المنظم الدقيق بفضل هذا الجو المعتدل الجميل

ولكن مصر في ماضيها تخلفت في ميدان الأدب عن الشام وفارس والعراق ، لأن الفوضى الجوية ، لا يحسها المصريون كما يحسها الشاميون والفرس والعراقيون ؛ وإلا فأين وصف الثلوج والأمطار والأعاصير في أشعار من يعيشون في ضيافة النيل ؟ ثم شاءت المقادير أن تتفوق في الأدب بعد تخلُّف ، فما مصدر ذلك التفوق ؟ لم نعرف قسوة الطبيعة كما يعرفها الناس في الشام وفارس والعراق ، وإنما رمتنا المقادير بقسوة أعنف من قسوة الطبيعة ، هي الثورة الجائحة التي تحس أعاصيرها الفواتك في الأذهان والعقول والقلوب

نحن كلَّ يوم على شفا الهاوية : إن اصطرع الشرق جزعنا ، وإن اضطرم الغرب نظرنا . ألم تسمعوا أنه كان معروفاً عندنا أن الميدان الأول في الحرب الحاضرة سيكون حول ضفاف النيل ؟

ومن هذه المحرجات التي تتجدد كل يوم ، إن لم أقل في كل ساعة أو كل لحظة ، من هذه المحرجات خُلقت لنا مكاره سياسية تفوق المكاره الجوية في الشام وفارس والعراق

وما هي نقطة الارتحال من وضع إلى وضع في الأدب الحديث ؟

لن أرجع إلى ما فصلته في مؤلفاتي ومقالاتي ، ويكفي أن أنص على أن الأدب في مصر لم يرتق إلا بفضل الفوضى السياسية ، وهي صورة من الفوضى الاجتماعية

النهضة الحقيقية للأدب الحديث ترجع إلى عهد مشئوم ، هو النزاع بين الرجلين العظيمين : عدلي يكن وسعد زغلول . في ذلك العهد صارت الكتابة والخطابة عنصرين أساسيين في تكوين الأدب المصري الحديث . وبفضل النزاع بين عدلي وسعد خُلقت جرائد ومجلات وأندية صار لها في نهضة الأدب مكان ملحوظ . وبفضله استطعنا أن نبدع في الشرق فنًّا جديداً ، هو الأدب السياسي ، وهو فنٌّ كان انقرض بانقراض النضال بين أشياع بني أمية وأتباع بني العباس . وإليكم هذه النكتة :

كان شاع أني أخاصم الأستاذ الدكتور طه حسين ، فكتبت في الهجوم عليه مقالات كان لها وقعٌ حسنٌ أو سيء عند قراء اللغة العربية ، واطلع الأستاذ محمود بسيوني على بعض تلك المقالات فانزعج أشد الانزعاج وسعى للصلح بيني وبين الدكتور طه في حفل مشهود حضرهُ العمداء وكبار الأساتذة بكليات الجامعة المصرية ، فهل تعرفون نتيجة ذلك الصلح المشئوم أو الميمون ؟

تلفّت الناس متوجعين لضياع فرصة ثمينة هي فرصة الجدل حول المذاهب الأدبية ، فهل فيكم من يتفضل بالسعاية بيني وبين الدكتور طه حسين لأرجع إلى مصاولته من جديد ؟

كان بيني وبين الدكتور طه ودٌّ وثيق ، ولكن رعاية ذلك الود لم تنفع الأدب بشيء ، لأن كل ما يصدر عنه كان يقع من نفسي موقع القبول ، فلما ثار عليّ وغضبت عليه أتيت في مصاولته بالأعاجيب ، فمن ذا الذي يتفضل فيفسد ما بيني وبينه لأجد الوقود لسنان قلمي ؟ أليس فيكم دساس ظريف ينقل إليه أنني اغتبته من فوق منبر كلية الآداب ؟

اتقوا الله وأفسدوا بيني وبينه وبين سائر الأساتذة لتسمعوا صرير القلم الذي تعرفون ! وهل فيكم من ينكر أن مجموعة نهج البلاغة من أعظم الذخائر الأدبية ؟ فهل كان يمكن أن يظفر الأدب بتلك المجموعة النفيسة لو اعتدل الميزان فصار عليّ ابن أبي طالب أول خليفة أو ثاني خليفة بعد الرسول ؟

إن غيظ ابن أبي طالب على أهله وزمانه هو الذي أرّث

فى صدره نيران الحقد على الدنيا والناس فزفر بتلك الخطب الروائع التى غالبت الدهر وسايرت الزمان

وما هى الظروف التى خلقت مواهب الشيخ محمد عبده ؟

هى ظروف الفوضى الاجتماعية فى انتقال الأزهر من حال إلى أحوال، يوم كان تدريس العلوم الحديثة موضع خلاف، ويوم كان القول بكروية الأرض يلقى ألف اعتراض

والشيخ المراغى من أكابر هذا الزمن ، ولكنه سيذهب بعد عمر طويل بلا تاريخ طويل ، لأن بيئة الأزهر قد صلحت واستنارت فلم تعد تحتاج إلى مصلح يتشرف بعدوان الاضطهاد

فإن أراد الأزهريون أن يكون لشيخهم تاريخ طويل فليتكافوا الغفلة عن مطالب العصر الحديث ليجد شيخهم فرصة الدعوة إلى اعتناق مذاهب التفكير فى الجيل الجديد

أرجوكم للمرة الثانية أو الثالثة أن تذكروا أنى لست من أنصار الفوضى الاجتماعية ، وإنما أنا مؤرخ لظاهرة من الظواهر الأدبية والفلسفية ، والمؤرخ غير مسئول عن حوادث التاريخ

وكم تمنيت السلامة من مكاره الفوضى التى تثور فى صدرى والتى قضت بأن يكون ميدان قتال بين الملائكة والشياطين

فى صدرى أتون يأخذ وقوده من الأحلام والأوهام والحقائق والأباطيل ، ثم يقول فى كل لحظة : هل من مزيد ؟

وهذا الأتون يفرض علىّ أحياناً أن ألقم فم الشره الأكول بأكداس من الآراء تشبه الحطب المعطوب ليسكت عنى لحظة أو لحظتين ، كما يقدم الأعرابى لناره الموقدة أكداساً من العظام والتراب ! ويشهد الله أنى أكره أشد الكره بعض ما يصدر عن قلمى ، ولكن ماذا أصنع وفى صدرى نار تأكل الحجر والطوب حين يعييها أن تجد الوقود الصالح من جذوع الشجر والنخيل ؟

ولكنى أتعزى كما ذكرت الحكمة التى تقول : «لو أنصف الناس استراح القاضى» . فشيوع المظالم بين الناس هو الذى خلق الثروة التشريعية ، وهو الذى قضى أن يكون فى الدنيا قضاة ومفتون ومحامون. ولو سلم المجتمع من الاضطراب لأغلقت المحاكم ، ولم يبق أمام الأستاذ لطفى جمعة إلا الفرار إلى الريف ليأخذ قوته مما تخرج الأرض بجهاد الفأس والمحراث ، ويومئذ يحرم الأدب من خطبة نفيسة يحاورنى بها فى المدرج الأكبر بكلية الآداب ، ويحرمون تكلف الرفق فى التصفيق له بغير حق !

لو أنصف الناس واستراح القاضى لخلت الدنيا من المؤلفات النفيسة التى صدرت عن الرومان والعرب والفرنسيين فى أصول التشريع . لو أنصف الناس واستراح القاضى لخلت الدنيا من الأدب الرائع الذى صدر عن رجال الأخلاق من الذين سمتم أخبارهم ودرستم آثارهم مع منصور فهمى ومصطفى عبدالرازق وأحمد أمين.

لو أنصف الناس لمات سقراط غير مسموم ، ولم نقرأ الوثيقة الأدبية الرائعة التى جاد بها قلم أفلاطون ، والتى فتنت لامرتين حين قرأها بترجمة كوزان فنظمها بقصيد رائع يفتت الجلاميد .

لو أنصف النـاس لحرمنا نفثات ابن مسكويه فى أدب الصديق . لو أنصف الناس لضاع على الأدب حظ نفيس هو أشعار أبى العلاء فى نقد أخلاق الحكام والقضاة والفقهاء . لو أنصف الناس لأمن هابيل شر قابيل فلم يصنع التمثال الرائع الذى نراه فى متحف (البتى باليه) فى باريس. لو أنصف الناس لحرم الأدب قصائد ابن الرومى فى تشريح ثائرة الحقد والبغضاء . لو أنصفت الطبيعة لحرمت الإنسانية من عبقرية باستور فى حرب الجراثيم . لو أنصف المجتمع لأمن بعض الرجال شر الاغتراب وهو فرصة ليقظة العقول . ولو أنصفت ليلى — عفا الحب عن ليلى — لحرمتم نفثات الجنون القديم والجنون الجديد

أنا أكره الفوضى لأنها كدرت حياتى ، ولأنها جعلت صدرى ميداناً لاصطراع الهدى والضلال ، ومع ذلك أجد العزاء ، حين أشاء

فبفضل الفوضى فى تقسيم الحظوظ نشأت مذاهب أدبية وفلسفية واقتصادية صنعت ما صنعت فى توجيه الأذهان والعقول بالشرق والغرب . وبفضل الفوضى فى توزيع الممالك كانت الحروب التى صاغت عزائم الأبطال . وبفضل الفوضى فى تكوين مدرس اللغة العربية قام النزاع بين الأزهر ودار العلوم والجامعة المصرية ، وهو نزاع محمود العواقب ، وسيؤتى ثماره بعد حين . وبفضل الفوضى فى تصور الغاية السياسية للأمم العربية والإسلامية خلقت عبقريات الكواكبى وجمال الدين ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول . وبفضل الفوضى فى فهم الغاية الأدبية كان الصراع بين أنصار القديم وأنصار الجديد . وبفضل الفوضى فى أحوال الجو كان التنويع الطريف بين الربيع والصيف والخريف والشتاء . وبفضل الفوضى فى الأخلاق والعقائد كان الجمال المرموق فى تزيين

الوجود بالحرب بين الفجور والعفاف والكفر والإيمان . وبفضل الفوضى فى تحديد الآراء كانت المناظرات التى تنظمها المعاهد والأندية والجميات . وبفضل الفوضى فى فهم الغاية الصحيحة لمصاير الإنسانية كان النزاع بين الديانات ، وكان الصراع بين المذاهب المختلفة فى الدين الواحد ، وتلك فتنٌ جوامح نشأت عنها آداب وفنون لا ينكرها إلا غافل أو جهول

لما تلطفت وزارة المعارف المراقية فدعتنى لتدريس الأدب العربى بدار المعلمين العالية فى بغداد ، سألت عن مبلغ بغداد من الحضارة فقيل لى إنها تشبه طنطا ، فجزعت أشد الجزع ، لأن طنطا يقلّ فيها الصراع بين المذاهب والآراء ، وإن كانت عامرة بالقصور والمتنزهات ، وهى البلد الوحيد الذى لا أبيت فيه حين أمضى إليه لمهمة رسمية

ودخلت بغداد فرأيتها أقل من طنطا فى الحضارة والعمران ، ولو شئت لقلت إن أصغر شارع فى طنطا أجمل من أكبر شارع فى بغداد ... وكذلك أحسست قسوة الوحشة حين دخلت عاصمة العراق ، ولولا الخوف من غضب « العقيدة الأدبية » لرجعت فى السيارة التى أقلتنى إلى هناك

وبعد يومين اثنين رأيت أن بغداد البدوية غير طنطا الحضرية فى طنطا شوارع عريضة وقصور شوامخ ، ولكن سكانها لا يعرفون الصراع الجميل بين المذاهب والآراء ، لأنها مدينة مصرية صميمة يقل فيها الأجانب ، ويكثر فيها ائتلاف الأذواق ، وهو باب من السكون والجمود

أما بغداد الجافية التى لا تعرف الحضارة فى غير شارع واحد فهى مضطرب عريض لاختلاف المذاهب والمشارب والأذواق ، فيها عصبيات عربية وفارسية وهندية وكردية ويهودية ، وفيها جاليات فرنسية وإنجليزية وأمريكية ، وفيها على جفوتها بقايا من الحضارات المختلفات ، وفيها ألف مجال ومجال لاضطرام الأذواق والأحاسيس

وكذلك ألفيت نفسى فى ضرام بغداد فكتبت فى نحو تسعة أشهر ألوفاً من الصفحات نشرتُ منها ما نشرت وطويت ما طويت

فى طنطا الحضرية يعيش شعبٌ واحد ، وفى بغداد البدوية تعيش شعوب ، ومن الاختلاف والائتلاف يحيا الأدب الرفيع

ليس فى بغداد كلها قصر يشبه أصغر قصر من قصور حاضرة « الغربية » ولكن بغداد فيها جرائد ومجلات وأندية لا تعرفها حاضرة « الغربية » لأن الهدوء فى طنطا عجز عما قدر عليه القلق فى بغداد . وكذلك فهمت أن الأدب يزدهر فى عصور الفوضى الاجتماعية وفى أقطار الفوضى الاجتماعية ، بدليل ازدهاره فى القاهرة وبغداد وباريس ولندن وبرلين ، على شرط أن تقع الفوضى فى قوم أصحّاء ، لا يُقلقهم الاضطراب ، وإنما يزيدهم قوةً إلى قوة ومضاءً إلى مضاء . وما رأيكم فى الشواطئ المصرية ؟ ألم تسمعوا أن رجال الدين اتفقت كلمتهم على أنها من الأرجاس ؟ ألم تروا حيرة شيخ الأزهر فى تخليص سمعة مصر من مآثم تلك الشواطئ ؟

لا جدال فى أن شواطئنا فى الصيف تمثّل الفوضى الاجتماعية أعنف تمثيل ، فهى مضطربٌ طويل عريض تثور حوله الآراء فى الإسكندرية وبور سعيد ودمياط ، ويمتدّ شرُّه حتى يصل إلى بحيرة التمساح ، ثم تنتقل عدواه إلى حمامات مصر الجديدة والمعادى وحلوان

ينظر الرجل المؤمن إلى هذه الشواطئ نظرة مخطوفة ، ثم يهتف : اللهم أن هذا منكَرٌ لا يرضيك ! وأقول وأنا صادق إنى أنظر إلى شواطئنا أحياناً بعين الغضب والمقت ؛ ولكن هذه الشواطئ المجرمة خلقت فناً جديداً فى اللغة العربية هو « أدب الشواطئ » ، وقد ألفتُ فيه كتاباً سأنشره يوم أطمئن إلى أن الجمهور يفهم أن المؤرخ غير مسئول عن حوادث التاريخ .

ويوم يُنشر هذا الكتاب ستعرفون أن مصر دانت الأدب العربى بثروة طريفة من تشريح العواطف والأهواء ، وسترون الغرائب حين تعرفون أن تلك الشواطئ أنطقت رجال الدين أنفسهم بأقوال هى من عيون الأدب الرفيع

كان الأستاذ الأكبر قد اتفق مع سعادة حامد باشا الشواربى على تخصيص جزء من شاطئ الإسكندرية للنساء بلغة العصر القديم ، أو السيدات بلغة العصر الحديث ، وتسامع رجال الأزهر بذلك فأمطروا شيخهم الكبير وابلاً من برقيات الثناء

ثم ماذا ؟ ثم أُعِدّ الشاطئ النسوى إعداداً محتشماً وأزيلت منه القهوات المخضرَمة التى تجمع من الأشربة ما نعرف وما نجهل

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم شاع أنه حمام خاص بالعجائز فلم تقبل عليه ستٌ ولا ستّوته ولا بنتٌ ولا بنّوتة ، ورفعت أسواره بعد يومين اثنين ؟

لا تظنونى خلقتُ هذه النكتة ، فما هى إلا واقعةٌ وقعت ،

ولها حواش وذيول ستعلمون أنباءها بعد حين

حياة الشواطئ إفك وسفاهة وضلال ، ولكن الأدب يستفيد من كل شيء ، لأن مهمة الأدب هي الوصف والشرح والتعليل ، وحياة الشواطئ تمدّه بوقود رائع جزيل

الشواطئ كلها مآثم ، ولولا الخوف من بني الحاسدين والحاقدين لقلت إن المآثم لا تخلو من بريق يزلزل القلوب والأذواق والعقول ، ومن هذه الزلزلة تكون الرجفة التي تثير شياطين الشعر والخيال . والشواطئ المصرية لها سوابق في تاريخ الأدب العربي . وقد وقعت تلك السوابق فوق أرض مقدسة تعطر ثراها بأقدام الرسول. هل تعرفون ما أعني ومن أعني؟ عندكم عمر بن أبي ربيعة وعندكم الشريف الرضي ، وهما شاعران جعلا مواسم الحج معالم صبابة ومدارج فتون

عمر بن أبي ربيعة فاجر بحسب الاصطلاح، وهيامه بزائرات مكة هيام أثيم ، ولكن أشعار ذلك الفاجر صارت من ذخائر الأدب العربي . وقد شرّقت وغرّبت حتى قهرت بعض الجامعات الأوربية على إفراد أشعاره بدرس خاص

كان يقال : ما عُصِيَ الله بشعر أكثر مما عُصِي بشعر عمر بن أبي ربيعة

وهذا حق ؟ فهل تضمنون أن يرفع اسمه من مطبوعات وزارة المعارف ؟ وكيف وهو من الذين ستحفظ أقدارهم في كتاب « أعلام الإسلام » بدراسة يقدمها الأستاذ عباس العقاد ؟

وتسمعون في كل يوم أن مصر تحارب الخمر لأنها في طليعة الأمم الإسلامية ، ولكن رجال الأدب في مصر لن يستطيعوا غض النظر عن « خمريات أبي نواس » لأن الأدب وإن تَخَيَّر في بعض نواحيه له سلطانٌ قهار لا ينكر جبروته غير الأغبياء !

أنا أبغض الفوضى أشد البغض ، وأرجو الله في كل وقت أن يحفظ عليَّ نعمة السلامة من مكايد الشياطين ، ولكني أؤرخ الأدب ، والمؤرخ لا يصدُق إلا إن تناسى منافعه الذاتية ، ونظر في الحوادث بلا غرض ، والنزاهة عن الغرض هي التي تفغني هذا الموقف الشائك فأسجل على نفسي القول بأن الأدب لا يزدهر إلا في عصور الفوضى الاجتماعية ، وهو قول يعرّضني لقوارص الاغتياب والتجريح

ولكن ماذا أصنع وأنتم دعوتموني لمواجهة المنطق والعقل فوق منبر كلية الآداب بين شباب وكهول لا يلقاهم الرجل الحازم بغير الصراحة والصدق ؟

أحب أن أعرف كيف يطيش السهم الذي صوبته إلى صدر الباطل بهذه الكلمات التي شقيت في تحريرها ليلتين طويلتين ؟ أحب أن أعرف كيف يضيع الرجل الصادق في هذه البلاد؟ أحب أن أعرف كيف ينال خصمي أصواتكم بعد هذه البينات ، وعلى ضوء هذه الكهرباء ؟ له أن يصول ويجول كيف شاء ، ولكم أن تحكموا له أو عليه كيف شئتم ، فما أملك من القدرة غير صرير القلم وهدير الوجدان . ولكن ، ما الذي يستطيع أن يقول ؟

أيقول : إن النظام أفضل من الاضطراب ، وإن الأدب الذي يصدُر عن الحالة الأولى أفضل من الأدب الذي يصدر عن الحالة الثانية ؟

آمنت وصدّقت ؛ ولكن هل يستطيع القول بأن النظام صدر عنه أدب رفيع ؟ وما حاجة الناس إلى الأدب حين يعيشون في نظام وأمان ؟ وهل للآمنين أدب وهم يعيشون في غيبوبة بفضل الراحة والاطمئنان ؟

الأدب حظُّنا ، جماعةَ المكتوين بالدنيا والناس ، وليس لسوانا غير الأحلام ، أحلام الناعمين بهدآت الليل !

عنّا يصدُر قلق الفكر وانزعاج البال ، وهما مصدر يقظة الرأي والعقل. فما بال قوم يتوهمون أنهم قادرون على مساورة الشعر والخيال وهم يشاركون الأموات في الهدوء والاطمئنان؟ عنا يصدر الإحساس بالدنيا والوجود ، لأننا أشقياء بالدنيا والوجود ، فما بال قوم يتوهمون القدرة على اقتحام جحيم الأدب وهم بفضل نعيم النظام سعداء ؟ عنا يصدر الأدب الصحيح ، لأننا أصحّاء ، وهل يحس وخز الألم غير من يملك عناصر العافية ؟

من أنتم ، في عالم الفكر والعقل ، أيها الوادعون في ظل الأمن المكفول برعاية القوانين ؟ أنتم أشبه بالأطفال الذين يعيشون في ظلال ما ورثوا عن الآباء والأجداد ، ولن تحسوا من الدنيا أكثر مما يحس هؤلاء ، أما نحن فقد كتب علينا أن نعيش بحس مرهف وذوق مشبوب ، بفضل البلاء بالدنيا والناس ، والفرق بيننا وبينكم أبعد مما تظنون ،فجرّبوا الاطمئنان إلى الوهم الخادع إن صح للمريض بالهيام أن ينخدع بالسراب !

النظام قرار ، والاضطراب حركة ، والحركة أدلّ على الحياة من السكون ، جعلني الله وإياكم من الأحياء ! زكي مبارك

أفانين

أثر الإيحاء في جلب التفاؤل

للأستاذ علي الجندي

— ٢ —

أوردنا في مقال سابق أمثلة للإيحاء الذاتي، كانت سبباً في ردء التشاؤم عن أصحابها ، وجلب التفاؤل إليهم

وسبيلنا في هذا المقال أن نسوق شواهد طريفة للإيحاء الخارجي ، أي إيحاء الإنسان إلى غيره

وطرافة هذه الشواهد أن جلها بل كلها وقعت عفو البديهة ومسارقة الخاطر ! ولولا ذلك ما كان لها هذا الأثر الذي يشبه فعل السحر ! لأن مجيء الإيحاء في وقته أشبه بمعالجة المرض إبان طروئه . هذا إلى أن ذلك يطبعه بطابع الإلهام العلوي والنفحات اللّدنية ! ويجعل له وقع البُشريَات التي تنفرج عنها سجوف الغيوب في الحين بعد الحين !

وطبيعي أن هؤلاء السحرة أو الرُّقاة — على الأصح — الذين استطاعوا أن يتلعّبوا بالنفوس ، فأروْها النحوس سعوداً ، والسواد بياضاً ! واستنقذوها من القلق والشك والارتماض ، لم يكونوا إلا جماعة من أهل اللسن والبيان ! ومن أقدر من أهل اللسَن والبيان على قلب الحقائق والتصرف في أهواء النفوس ؟ وإن من البيان لسحراً !

بل الحق أن البلاغة وحدها لا تغني غناءها في هذه المواقف المتضايقة ، ما لم تسعدها شدة العارضة ودقة الفطنة وحسن التأتي وبراعة الاحتجاج وقوة التعليل

وسنذكر هذه الشواهد فيما يلي مرتبة بحسب الزمن قدر الاستطاعة :

١ — بنى عبد الملك بن مروان[(1)] باباً من أبواب المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وبنى الحجاج باباً إلى جانبه ، فنزلت صاعقة فأحرقت باب عبد الملك ، فتطيّر بذلك وشق عليه ! فبلغ ذلك الحجاج فكتب إليه : بلغني كذا وكذا ، فليهن أمير المؤمنين أن الله تقبّل منه ! وما مثلي ومثله إلا كابنَي آدم إذ قرّبا قرباناً ، فتُقُبِّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر

فلما وقف عبد الملك على الكتاب سُرِّي عنه واستبشر

قال صاحب المثل السائر : وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم ، ويكفي الحجاج من فطانة الفكرة أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك

٢ — خرج المنصور العباسي إلى قتال أبي يزيد الخارجي في جماعة من الأنصار . فلما واجه الحصن سقط الرمح من يده ، فأخذه بعضهم فمسحه وقال :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فضحك المنصور وقال : لم لا قلت : فألقى موسى عصاه ؟

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، العبد تكلم بما عنده من إشارات المتأدبين ، وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل الله على النبي من كلام رب العالمين

فكان الأمر على ما ذكر ، فأخذ الحصن وتم الظفر للمنصور

٣ — قلد المأمون[(1)] خالدَ بن يزيد بن مَزْيد ولايةَ الموصل ، فرّ خالد ببعض الدروب فاندقّ اللواء ! فاغتمّ خالد بذلك وتطيّر منه ! فقال أبو الشمقمق :

ما كان مُنْدَقُّ اللواء لطيرةٍ ... تُخشَى ولا سوءٍ يكون معجّلا

لكنّ هذا العُودَ أضعفَ مَتْنَهُ ... صِغَرُ الولاية ، فاستقلّ الموْصِلا

ففرح خالد ! وكتب صاحب البريد بذلك إلى المأمون ، فزاده ديار ربيعة ، وأعطى خالدٌ أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم

٤ — كان المنصور[(2)] بن أبي عامر الأندلسي إذا سار لغزوة ، عقد لواءه بجامع قرطبة ولم يسر إلى الغزوة إلا من الجامع

فاتفق أنه في بعض حركاته للغزو ، توجه إلى الجامع لعقد اللواء ، فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة ، ورفع حامل اللواء اللواء ، فصدم ثريّا من قناديل المسجد فانكسرت على اللواء ، وانسكب عليه زيتها ! فتطير الحاضرون من ذلك ، وتغير وجه المنصور !

---

(1) المثل السائر ١٢٧

(1) العمدة (١ — ٤٠)

(2) ثمرات الأوراق (١ — ١٠٣)

فقام رجل وقال : أبشر يا أمير المؤمنين بغزاة هيّنة وغنيمة سارّة ! فقد بلغت أعلامك الثريّا ، وسقاها الله من شجرة مباركة !

فاستحسن المنصور ذلك ، وكانت هذه الغزوة من أبرك الغزوات !

٥ — كان سيف الدولة[1] بن حمدان ، قد ضرب خيمة كبيرة عجيبة الصنع (بميّافارقين[2]) فهبت ريح شديدة فقوضتها ، فتكلم الناس في ذلك وأكثروا ، فقال المتنبي :

أينقدح في الخيمة العُذّلُ   وتشمل مَنْ دهرَها يشمل
وتعلو الذي زُحَلٌ فوقه   مُحالٌ لعمرك ما تُسأل
تضيق بشخصك أرجاؤها   ويركض في الواحد الجحفل
وكيف تقوم على راحةٍ   كأن السحاب لها أنمُل
فلا تنكرنّ لها صرعة   فمن فرح النفس ما يقتل
ولو بلغ الناس ما بُلّغت   لخانتهمو حولك الأرجل
ولما أمرت بتطنيبها   أُشيع بأنك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها   ولكن أشار بما تفعل
فما العاندون وما أمّلوا   وما الحاسدون وما قوّلوا
همو يطلبون فمن أدركوا ؟   وهم يكذبون فمن يَقبلُ ؟
وهم يتمنون ما يشتهون   ومن دونه جدُّك المقبل

٦ — كان أبو إسحاق[3] ابراهيم بن عبدالله البحتري يوماً عند أبي المسك كافور الأخشيدي ، فدخل عليه الفضل بن عباس فقال : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ (بخفض أيام وحقها النصب) فتبسم كافور إلى أبي إسحاق البحتري ! فقال مرتجلاً :

لا غرو إن لحن الداعي لسيدنا   وغص من هيبة بالريق والبهر
فمثل سيدنا حالت مهابته   بين البليغ وبين القول بالحصر
فإن يكن خفض الأيام من دهش   من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلت في هذا لسيدنا   والفأل مأثرة عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب   وأن دولته صفو بلا كدر

٧ — كان لعضد الدولة[4] أحد الرؤساء ابن خُلعَ عليه خلعة سنية ، وركب إلى منزله — والناس بين يديه — فعثرت[5] به فرسه فسقط من فوقها ، ثم ركبها ثانية من ساعته ، فلهج الناس بالقول في الطيرة ، فقال الوجيه[1] الشاعر :

لا تعذل الفرسَ التي عثرتْ   بك أمسِ قبل سماعك العذْرا
قالت مقالاً لو علمتَ به   لم تولها لوماً ولا هجرا[2] :
لما رأى الأملاك أنّ على   سرجيَ فتًى أعلى الورى قدْرا
رفَعتْ يدي حتى تقبّلها   شغفاً بها فهوت يدي الأخرى

٨ — كان[3] السلطان حسن الناصري المصري يريد أن يبني لمدرسته (مسجد السلطان حسن) أربع منائر . فلما بنيت ثلاث منها سقطت المنارة التي على الباب ، فهلك تحتها ثلاثمائة من الأيتام الذين كانوا يقرءون القرآن وغيرهم من الناس !

فتحدّث الناس أن هذا نذير بزوال الدولة ! فقال في ذلك الشيخ بهاء الدين السبكي :

تلك الحجارة لم تنقضْ بل هبطتْ   من خشية الله ، لا للضعف والخلَل
وغاب سلطانها فاستوحشت فرمتْ   بنفسها لجوًى في القلب مُشتعِل
لا يقرب البؤسُ بعد اليوم مدرسةً   شـيدتْ بنيانها للعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأتْ   علماً ، فليس بمصر غير مشتغل

ومما يتصل بهذا وإن لم يكن منه أن الناجم دخل على ابن الرومي ، وهو ينظم قصيدة في مدح أبي العباس المرثدي ويهنئه بابن وُلد له ، وكان أول القصيدة :

شمسٌ وبدرٌ ولدا كوكبا   أقسمت بالله لقد أنجبا

فقال الناجم : لو تفاءلت لأبي العباس بسبعة من الولد لأن معكوس أبي العباس : أبو السابع ، إذاً لجاء المعنى طريفاً ! فقال ابن الرومي :

---

(١) ديوان المتنبي
(٢) مدينة بإقليم ديار بكر
(٣) زهر الآداب (٣ — ٣٧)
(٤) غير عضد الدولة بن بويه
(٥) معجم الأدباء (١٧ — ٦١)

---

(١) مثل ذلك قول ابن حيوس في محمود بن نصر وقد زلت قوائم فرس كان تحته :

حاشا لأشقرك الميمون غرته   يزل ، والفلك الدوار خادمه
وإنما عاين الأملاك ساجدة   إلى علاك فلم تثبت قوائمه

(٢) بفتح الهاء : القطيعة . وبضمها : القول الفاحش . وكلاهما محتمل
(٣) زهر الآداب (٢ — ٨)

وقـد تفاءلتُ له زاجراً | كنيتَه ، لا زاجراً ثعلبا
إنى تأمّلتُ له كنيةً | إذا بدا مقلوبها أعجبا
يصوغها العكسُ أبا سابع | لا كذَّبَ اللهُ ولا خيّبا
بل ذاك فألٌ ضامنٌ سبعةً | مثل الصقور استشرفت مرقبا
يأتون من صُلب فتيّ ماجد | وذاك فألٌ لم يَعُدْ مُطنبا
وقد أتى منهم له واحـدٌ | فَلْنَنتظرهم ستّة غيّبا
فى مـدة تغمرها نعمةٌ | يجعلهـا الله له تُرْتَبا(٢)
حتّى نراه جالساً بينهم | أجلَّ من رضْوَى ومن كبكبا
كالبدر وافى الأرض من نوره | بين نجوم سبعة فاحتبى
ولْيُشكر النّاجمُ عن هذه | فإنها من بعض ما بَوّبا
سَدّيَ وَألحتُ أخٌ لم أزلْ | أشكر ما أسْدى وما سَبّبا

هذه الشواهد وما قبلها تدل دلالة واضحة على أن التفاؤل والتشاؤم من عمل الإنسان نفسه ، وأن المصاب بمرض التطير يستطيع بقوة الإرادة ، واصطناع الرجاء ، والنظر إلى الحوادث بمنظار أبيض وهاج ، فى ظل الثقة بالله وبشاشة الإيمان ، أن يبرأ منه برءا تاما ، ولله الخلق والأمر .

على الجندى

(١) بضم التاء الأولى وفتح الثانية وضمها . من معانيها : الأبد والشيء المقيم الثابت (هامش شرح المفصل للزمخشرى)

١ - تأمـــــلات

فى يوم سبت من يناير من عام منصرم تحركت عاطفة مكنونة فإذا هى تضطرم ، وإذا ظرفها الطارئُ يطبع أربعة عشر عاماً من حياتى بطابع خاص . كانت العاطفة فى غضونها مودة فحسب، اشتدت حيناً وفترت أحياناً ، وتفاوتت درجاتها بتفاوت الظروف لكنها بقيت مودة يغذيها ميل وألفة وجميل وعرفان ؛ حتى كان يوم السبت ، فحالت العاطفة شيئاً آخر بدأ غبطة يكتنفها ذهول واستسلام ؛ ثم تنبه القلب إلى زائر جديد لا يعرف الاستئذان واستقر بين الضلوع شىء نسيت على مر الأيام اسمه ، فأحسست اليوم فعله ، وكان جارفاً ، أطار كل شىء من لب ونوم ، وبسط على نفسى الهادئة سلطانه ، فاضطربت واضطرمت ، ولم تك تدين من قبل لسلطان كهذا يشبه البُحران

ومضت بين السبت والسبت سبعة أيام ، لزمت فيها الفراش يومين ، ومحدتى ثلاثة ، وحرت فى بقيتها بين البيت والمكتب ، تارة آلم ، وتارة أنعم ، وطوراً تفترسنى كآبة تبيت معها قوتى ضعفاً ، ولا أملك أن أرفع فيها جفناً . أما طبعى الذى لم يبال فى حياتى أحداً ، فخاننى هذه المرة ، فكففت عن أن أكون ما كنت

كنت أحب الوحدة ، والظلام الذى لا يقربه الخفاش ، لأنه تضئيه التأملات . وكنت أوزع مودتى على غير واحد من بنى البشر ، وأحس الميل الجامح إلى غير واحدة من بناتهم . فلم أعرف فى التوزيع غير القسطاس . وكنت أعجب أحياناً كيف أحب الناس هذا الحب العادل ، وكيف أتحرر إلى هذا الحد من سلطان التحيز والتحامل ، لكنى هذه المرة قد اضطرب ميزانى ، فإذا بى أميل إلى ناحيته كل الميل ، وإذا تلك التى رجحت كفتها تستبد بى من دون أن تعلم ، وتستحوذنى على عظم جرى فى طى إشارة لو شاءت ، وهى بعد لم تشأ ولم تدر . بل قل : إنها تدرى ولكن لا تدرك . وكيف تدرك وهى تعبث ، والأمر عندى جد وهى تلهو ، وأنا جدٌّ حزين ؟

ما بك يا فتاتى ! الشباب الذى ترفلين فى غفلته ، وتخطرين فى روعته ، وترمين فيه نظراتك واهنة ، فتصمى مع هذا إصماء السهم ؛ ثم لا شىء فى ذهنك غير الفراغ ، وكل شىء يضطرب به ذهنى ، ويدى ، ويتألم ...

أأحسست دفء الإيمان فى راحتى حين احتوت راحتك الدافئة بدم الشباب ؟

إذن فدعينى أذكر لك يا فتاتى بعض الذى بى : أحبك حبًّا خالط كل حواسى ، فأنا أبداً على ذكر منك ، وأنت على مرأى ومسمع منى

رسمك أبداً ماثل لعينى ، حاضر فى ذهنى ، فأنا فى الحياة أعيش بك وأنساق بإرادتك . أكون مع الناس جميعاً فى كل مكان ، ولا أكون إلا معك ... الغبطة التى تطغى على مصدرها أنت ؛ والألم الذى يهد كيانى مبعثه أنت . والمشاعر على اختلافها تتناوبنى منك ولا أملك أن أشعر لنفسى وبإرادتى

أتحبين يا فتاتى أن أصارحك بما ساورنى ليلة أمس ؟ إن نظراتك الواهنة التى خلتك تؤثرينى بها نظرة للجميع ، فهى من هذه الناحية عادلة وهى مما خلاها ظالمة خادعة

إنك يا فتاتى لغز ، ميزتك الكبري جاذبيتك ، فأنت تجذبين محبيك ومبغضيك على السواء . ولا يملك المرء ألا يكترث لك

ليس جمالك بالفاتن ولابالذى يلفت النظر . وقد تمرين بالألوف من دون أن تستوقفى أحداً ، ويمر بك الألوف من الكرام . لكن كيانك جميل كل الجمال ، فاتن كل الفتنة ، ولا بد من الوقوف عندك والتأمل فيك ليملكك من يشاء ومن تشائين، ويأسره منك إلى الأبد تلك النظرة الواهنة ، والابتسامة الحائرة ، والوجه الذى لا يمتاز بشيء فى تفاصيله ولكنه فى جملته وحدة أخاذة

ما قولك يا فتاتى فيمن ظل أربعة عشر عاماً على رأى واحد فيك ، وميل واحد نحوك ، وكنت فى خلالها طفلة فى العاشرة ، وزهرة فى الرابعة عشرة ، وثمرة شهية فى العشرين ، فما فكر فى غير الحدب عليك ، واستنشاق عبيرك ، والتطلع إليك . لكنه لم يقطفك ولم يخنك

كانت زهرتك تغرى بالقطف ، لكنه كان فيك ما يرد الأيدى عنك . وكانت ثمرتك ناضجة شهية ، لكنها كانت الثمرة المحرمة . وكنت عزلاء إلا من ذلك العفاف الذى ينبعث من كيانك طهراً وبراءة

ثم سددت يوماً إلى قلبى نظرتك المعهودة وفيها بريق غير معهود ، ومعها حاشية طيعة من الضحك الواهن الغالب عليه الحياء . وألفيتك فى مجلسي مرحة قد وسع فهمك مغازى الكلام ، ودقت إجاباتك عليها

ثم ظللت جبينك العالى غمامة فأطرقت برأسك ، واحتوتك كآبة وخفت صوتك ، وكان سكون طال عليه الزمن أو قصر لا ندرى ، أو على الأقل لا أدرى

واحتوت راحتك راحتى فإذا هما شعلتان ، وحاولت أن أحدق فى عينيك فلم ترفعيهما إلىّ ، وألقيت عليك كلمة من عفو الساعة فلم تردى علىّ

ولبثنا هنيهة على هذه الحال من الصمت فإذا نحن نتساءل معا : هل أسأت إليك ؟!

وكيف تسيئينني يا فتاتى وقد أشعرتنى الهناء الذى كنت أحوّم حوله أيام الشباب ولا أناله ، حتى كان يوم السبت من يناير من عام منصرم فخلقتنى خلقاً آخر يدين لك بالوجود

(م . د)



عرفان الجميل

نهضت للقائه وقد أقبل عليّ هاشاً محيياً ، وصافحته شاكراً له تحيته مجيباً عليها بأحسن منها ، وجلست وجلس وهو يحمد الظروف التي جمعت بيننا في القرية على غير انتظار

وكان يعلم أني لا تتاح لي فرصة للمجيء إلى القرية إلا اغتنمتها فمال بالحديث إلى ذلك المعنى ، وأخذ يبدئ ويعيد في بيان مبلغ كرهه للقرية ، وهو لن يرى أبلغ من أن يقول إنه يكرهها بقدر ما أحبها ؛ وإنما يجيء إليها مضطراً في بعض عمله ثم يغادرها بأسرع ما يستطيع

ولما كنت أفهم العلة الحقيقية لتلك الكراهية لم أشأ أن أناقشه فيما أبداه من غيرها من العلل الزائفة ، بل لقد ثقل عليّ كلامه وأنكرت ما يفيض به من تكلف سخيف وما ينطوي عليه من خبث بغيض

ورأيته يبالغ في الحذر على ملابسه أن يعلق بها التراب فهو لذلك يمسحه عنها بمنديله بين آونة وأخرى لا يمل ذلك ولا يفتر عنه ؛ وكيف يطيق أن يرى الغبار على حلته (الإفرنجية) ، وإنه ليزهى أكبر الزهو بأن يخطر فيها على أعين الناس في القرية يذكرهم بها كيف أنه أصبح ذلك « الأفندي » الوجيه الذي لا يقل في وجاهته وعظمته شأناً عن سراة القرية ووجوهها . ولعل هذا المظهر الذي تبتهج له نفسه هو وحده الذي يجعله يطيق البقاء يوماً أو بعض يوم في تلك القرية

وقطع علينا الحديث قدوم شيخ أربى فيما قدرت على الستين يتوكأ على عصا غليظة ، ويكاد من الضعف لا تقوى على حمله رجلاه ، ولم يكن ذلك الشيخ المتهدم إلا والد ذلك الأفندي الوجيه ؛ ونهضت أستقبله مظهراً له حفاوتي به ؛ وعجبت أن أرى ابنه يقف متثاقلاً متباطئاً ؛ وأسند الرجل عصاه إلى أحد المقاعد وهمّ ليجلس على الأرض فأمسكت بيده وأجلسته بعد إلحاح على المقعد ...

وأطرق الرجل لحظة ، ولكني تبينت في عينيه كلاماً ؛ وفطنت إلى أنه يرتاح لوجود ابنه معي في تلك الآونة إذ يستطيع أن يسمعه ما يريد ويشهدني على قوله ويبثني شكواه ؛ وزدت وثوقاً من ذلك بما رأيته من اضطراب وغيظ على ملامح ابنه الوجيه .

وتنهد الرجل تنهدة طويلة ثم انطلق يتحدث ولم يكن حديثه إلا شكاة مرة موجعة من هذا الذي أنفق عليه الرجل ماله جميعاً حتى صار إلى ما صار إليه . وذكر لي فيما ذكر والدموع تبلل لحيته البيضاء ، أنه ذهب إلى بيت ابنه في المدينة فأنكر الابن وجوده هناك ، فذهب أبوه يطلبه في مقر عمله فدله عليه بعض الخدم ، فانتحى به الابن جانباً وهو يحاول كتمان غيظه ثم صرفه بعد دقائق ، فما كاد الرجل يبلغ عتبة الحجرة حتى سمع ابنه يقول لزملائه ضاحكا : إن هذا الرجل كان فيما قبل مزارعاً أجيراً عند أسرته وإنه يطلب إحساناً ... وخنقته العبرات لحظة ثم عاد إلى حديثه يسألني : هل يكون ذلك نتيجة التربية ؟ وهل يكون جزاؤه على بيع ما كان يملك في تعليم ابنه أن يقابله بما يقابله به ؟

والتفت أطلب الجواب من الوجيه المتعلم الذي يكره القرية وحياة القرية ، فهالني ما سمعته من عبارات فاجرة أخذ يوجهها إلى الذي كان سبباً في نعمته ، دون أن يستحي ، وكانت أقل تهمة ألصقها بأبيه أنه قد صار شيخاً خرفاً لا يؤاخذ

وبلغ بي الغيظ كل مبلغ فنصحت إلى الرجل أن يرفع إلى القضاء دعواه ، فنظر إليّ نظرة شكر ولكنه قال : « يا بني نضحك علينا البلد ونسمع بنا الناس ؟ لا ، أنا عندي أموت من الجوع ولا يقول الناس إن ابني ناكر للجميل »

وأخذت أسري عن الرجل بما أستطيع من الكلام وقد عزني في هذا الموقف الكلام . كل ذلك وابنه صامت كأنه جماد ، ثم وعدت الشيخ أني سأبذل قصارى جهدي من أجل راحته وودعته مواسياً مشفقاً

وهمّ ابنه بالانصراف بعده فمددت إليه يدي على كره مني ؛ وجلست وأنا أقول : أيكون بعد ذلك غريباً أن نجهل القرى وحياة ساكني القرى وأن نظل وكأننا بما بيننا وبين هؤلاء المساكين من قطيعة شعبان يعيش أحدهما من كد الآخر ؟ وإذا كان هذا شأن بعض الأبناء مع الآباء فكيف تكون الحال فيمن لا تربطهم بأولئك المساكين بنوة أو قرابة ؟

« عين »

حول لقب «السفاح» أيضاً

للأستاذ عبد الحميد العبادي

وأخيراً يدلى الأستاذ عبد المتعال الصعيدى دلوه فى الدلاء وينبرى للبحث عن لقب «السفاح» لمن هو على التحقيق. وقد كتب الأستاذ فى هــذا الموضوع ثلاث مقالات نشرت فى الأعداد ٣٤٦ و٣٤٧ و ٣٤٩ من «الرسالة» الغراء. ونحن لا شأن لنا بالمقالة الأولى من هذه المقالات ، لأن الأستاذ ذهب يدلل فيها على أننا مسبوقون إلى تفسير لفظ «السفاح» بالمعطاء للمال، وفاته وهو يكتب تلك المقالة أننا قد نزلنا عن هذه الدعوى عند ما ثبت عنــدنا أن الذين لقبوا الإمام أبا العباس بذلك اللقب لم يقصدوا إلى مدحه بل إلى ذمه ووصفه بأنه سفاك قتال. أما مقالتاه الثانية والثالثة فهما اللتان نعنى بمناقشتهما اليوم. وقد حاول الأستاذ فى المقال الثانى أن يفند قولنا إن أبا العباس لم يكن سفاحاً ، كما حاول فى المقال الثالث أن يبين لنا كيف اختلفت الروايات فى لقب السفاح بين أبى العباس وعمه عبد الله بن على

* * *

ولقد كبر على الأستاذ الصعيدى أن نقول : «إنا رجعنا إلى سيرة أبى العباس قبل الخلافة وبعدها فلم نجد فيها ما يسوغ تلقيبه بالسفاح» فاندفع يرمينا بالغفلة الظاهرة والتجنى على التاريخ وزعم أن سيرة أبى العباس بعد الخلافة «طافحة» بسفك الدماء ولقد ظننت الأستاذ سيأتى فى الأمر بجديد فإذا به يعزو إلى أبى العباس ثلاثة حوادث: أولها قتله ابن هبيرة غدراً، وهذا قد نبهت أنا عليه فى أول مقال نشرته لى الثقافة فى هذا الموضوع . وثانيها قتله أبا سلمة الخلال، ولم أعد أنا أبا العباس مسئولاً عن هذا الحادث شخصياً ، فالباعث عليه من قبيل ما نسميه الآن بتهمة الخيانة العظمى ، ولذلك لم أعتد به على أبى العباس . على أن هذا الحادث قد تولى كبره أبو مسلم الخراسانى من غير مراء . الحادث الثالث قتل أبى العباس سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد أن آمنه ، ولو تتبع الأستاذ قصة هذا الأمير فى أقدم مظانها وأصحها وهو تاريخ ابن جرير الطبرى لعلم أن الطبرى يتتبع أخبار سليمان هذا بكثير من العناية والإسهاب حتى سنة ١٢٩ ثم لا يعود إلى ذكره بعد ذلك التاريخ ، وسياق حديث الطبرى يفيد أن هذا الأمير قتل فى وقعة مرو الشاذان التى كانت سنة ١٢٩ بين جيش ابن معاوية الثائر بفارس وبين جيش ابن هبيرة أمير العراق؛ وإذاً يكون سليمان ابن هشام قد فارق هذه الحياة قبل قتله المزعوم على يد أبى العباس بنحو أربع سنوات على أقل تقدير . وإذاً لا يمكن أن ينسب من هذه الحوادث إلى أبى العباس إلا حادث واحد فقط هو مقتل ابن هبيرة ، وحتى هذا لا يعدم عند تدقيق النظر توجيهاً وتأويلاً . فقد كان ابن هبيرة زعيماً عربياً قوياً ، وكان له حزب عربى عظيم فى مدينة واسط ، وكان أبو العباس يعتقد أنه يرقب الأمور ، ويتربص الدوائر ليثب وثبة ترد عليه ما ضاع منه ، فرأى أن يعاجله قبل استفحال شأنه

ولما لم يجد الأســتاذ الصعيدى من حوادث القتل ما يصح أن ينسبه إلى أبى العباس رأساً أخذ ينحله جرائم غيره ، فزعم أنه هو الذى قتل تسعين من بنى أمية كانوا على مائدته بتحريض سديف الشاعر؛ مع أن هذا الحادث الفظيع إنما كان بفلسطين وهو المعبر عنه فى تاريخ الطبرى بيوم أبى فطرس، والمسئول عنه هو من غير نزاع عبد الله بن علىّ وحده . بل إن الأستاذ الصعيدى ليجعل أبا العباس مسئولاً عمن قتل عبدالله بن على بالشام وداود بن على بالحجاز وسليمان بن على فى البصرة، لأنه هو الذى «سلطهم» على بنى أمية فى البلدان المذكورة . وهذه قصة الذئب مع الخروف معادة بشكل آخر . ولست أدرى على أى مصدر يعتمد الأستاذ فى دعواه هذا «التسليط» فالمصادر لا تذكر إلا لفظ «التولية» على تلك البلدان . والتولية ليس معناها «التسليط» بطبيعة الحال . ثم أين عدالة الإســلام وأدب القرآن الذى يقول «كل نفس بما كسبت رهينة» «ولا تزر وازرة وزر أخرى» ؟ وأين مبدأ شخصية الجريمة وشخصية العقوبة وهو من الإصلاحات العظيمة التى جاء بها الإسلام ، وكانوا فى الجاهلية ربما أخذوا القبيلة كلها بجريرة فرد واحد منها ؟ الحق أن أبا العباس كما بينت فى مقالاتى

السابقة كان مغلوباً على أمره لأبي مسلم بالمشرق ولعمه عبد الله ابن علي بالشام ، ولو رجع الأستاذ الصعيدي إلى تاريخ الطبري وقرأ فيه سيرة أبي العباس لتبين له ذلك بأجلى بيان ، فلعله فاعل إن شاء الله

ولقد بلغ من حرص الأستاذ الصعيدي على اتهام أبي العباس أن وقع في تناقض عجيب حقاً . فقد كتب في مقاله الثاني يقول : « ولقد كان له (أي لأبي العباس) سفاح آخر نسيه المؤرخون ، ولم يكن بأقل من عبد الله بن علي سفكاً للدماء . ذلك هو سليمان بن علي أخو عبد الله وعم أبي العباس ، فقد ولاه البصرة وسلطه على من كان بها من بني أمية ، فقتل من كان بها منهم وألقاهم في الطريق فأكلتهم الكلاب » . وبعد أسطر قليلة يقول الأستاذ الذي يرمينا بالغفلة : « ويطول بنا الكلام لو ذهبنا نستقصي ما سفك أبو العباس وأعمامه وإخوته (مع العلم بأن التاريخ لا يعرف لأبي العباس إخوة سفاكين يسأل عن جرائمهم) من الدماء . ولقد كانوا كلهم شركاء فيها عدا سليمان بن علي فإنه كان أحنهم على بني أمية وكان يكره سفك دمائهم ، ويجير كل من استجار منهم الخ » والظاهر أن الأستاذ أحس هذا التناقض العجيب وأراد أن يتلافاه فكان تلافيه له أعجب وأغرب ، إذ عقب على الفقرة الأخيرة بقوله في هامش المقال الثاني : « هكذا روى عنه صاحب العقد وهو ينافي ما ذكرناه من قتله من كان في بني أمية بالبصرة ... فلعل هذه الشفقة أدركته أخيراً عليهم » .

ولولا أن الأستاذ الصعيدي جاد فيما يقول لقلنا إنه تعمد أن يورد في هذا البحث الدامي فصلاً مضحكاً يرفه به عن القراء

والواقع أنه لا أبو العباس ولا عمه سليمان بن علي يمكن أن يوصفا بأنهما سفاحان سفاكان ، وذلك لسبب واضح هو أنه لم يكن في العراق في وقتهما أمويون يمكن أن يبسطا إليهم يد القتل والمثلة . فمن يتعمق درس التاريخ الأموي يعلم أن العراق لم يكن في وقت من الأوقات موطناً لبني أمية وبخاصة في أخريات عهدهم عند ما انشقت عليهم فيه الفتوق التي زعزعت ملكهم ، وكادت تأتي على سلطانهم قبل زحف العباسيين من المشرق .

إنما كان موطن بني أمية ومحل عصبيتهم الشام ثم الحجاز . فإذا سكتت المصادر التاريخية القديمة عن أن تنسب إلى أبي العباس قتل بني أمية أو قال صاحب العقد إن سليمان بن علي كان شديد الحنو على من يلجأ إليه من بني أمية ، كان هذا السكوت وذلك القول هو المعقول والمتفق وحقيقة الحال . وإذا اقتصر الطبري على ذكر من قتل الأمويين إنه إنما كان في الشام والحجاز كان ذلك منطبقاً على الحقيقة والواقع

مما تقدم يرى القارئ أن الأستاذ الصعيدي على عنف محاولته « إدانة » أبي العباس وتسويغ تلقيبه بالسفاح لم يكن موفقاً ، بل هو لم يخرج في واقع الأمر قيد شمرة عن مضمون قولنا : « إن سيرة أبي العباس قبل الخلافة وبعدها لا تسوغ تلقيبه بالسفاح بحال من الأحوال »

* * *

ولننتقل الآن إلى مناقشة موقف الأستاذ الصعيدي من المصادر واختلافها في لقب السفاح بين أبي العباس وعمه عبد الله بن علي . وهو موقف عجيب حقاً ، فالأستاذ الصعيدي ينظر إلى المؤرخين والأدباء الذين تعرضوا لسيرة أبي العباس وأخباره نظرة واحدة ، ويضعهم في مرتبة واحدة من حيث العدالة والضبط والحجية ، لا فرق عنده بين متقدم ومتأخر ، وبين متخصص في الرواية التاريخية وغير متخصص فيها ، وبين من يتتبع الرواية بإسنادها إلى من شهد الواقعة ومن يتسقط الأخبار من هنا وهنا . وما هكذا كان السلف الصالح من علماء المسلمين . فإنهم كانوا يزنون الرجال والأخبار بأدق موازين النقد ؛ وما علم الحديث منا ببعيد ، فقد رجحوا كتاب البخاري على غيره من كتب الحديث ، لأنه أقل من غيره رجالاً تكلم فيهم بالضعف ، وأقل من غيره أحاديث شاذة أو معلولة . فإذا جئنا إلى التاريخ ، وجدناهم يقولون : إن أصح التواريخ تاريخ ابن جرير ، وإن كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري لم يؤلف مثله في موضوعه ، وإن طبقات ابن سعد أقدم وأعظم كتاب في السيرة وتاريخ الصحابة والتابعين . وقالوا في ابن قتيبة إنه قليل الرواية

ولقد أدى هذا الموقف الأستاذ الصعيدى إلى نتيجة هى عجب من العجب ، فالمصادر التى لقبت أبا العباس بالسفاح صادقة لأن ، أبا العباس عنده سفاح ، والمصادر التى لقبت عبد الله بن علىّ بنفس اللقب صادقة لأنه كان سفاحاً . والمصادر التى سكتت عن تلقيب هذا أو ذاك باللقب المذكور لا يصح الطعن بها فى رواية المصادر التى ذكرت هذا اللقب « لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ » وهى قاعدة مشهورة عند الأزهريين ويقول الأستاذ إنه لا يمكن أن أجادل فيها . وأنا لا أجادل فى القاعدة ولكن أجادل فى تطبيقها فليس هذا محل تطبيقها ، والمسألة ليست مسألة حفظ وتضييع ، وإنما هى مسألة تخليط وعدم تخليط ، فهل يسلم الأستاذ بقول من يقول « إن من خلط حجة على من لم يخلط » ؟

أما نحن فنظرنا إلى المصادر نظرة نقد وتقدير كما فعل الأقدمون من علماء الحديث ؛ فوجدنا أن أقدمها وأوثقها وأشدها تخصصاً بالرواية التاريخية لا تلقب أبا العباس بالسفاح، وتصور هذا الخليفة فى الصورة التى أجملناها غير مرة ، ووجدنا المصادر التى شوهت صورة هذا الخليفة ولقبته بالسفاح ونسبت إليه الفظائع هى من وضع رجال ليسوا متخصصين فى الرواية التاريخية الجدية ولا معروفين بالعدالة والضبط اللذين يعرف بهما أصحاب الرواية التاريخية القديمة كابن سعد والبلاذرى والطبرى وغيرهم . هذا هو موقفنا بإزاء المصادر القديمة من حيث موضوع « السفاح »

وبعد فلئن كنت حزنت لشىء وأنا أقرأ المقال الثالث والأخير للأستاذ الصعيدى فلقد حزنت للعبارة التى علق بها على جملة لابن العبرى المؤرخ المسيحى المتدين الزاهد . فقد قال ابن العبرى : « وكان أبو العباس رجلاً طويلاً أبيض اللون حسن الوجه يكره الدماء ويحامى على أهل البيت » فعلق الأستاذ الصعيدى على ذلك بقوله : « إن هـذا لا يراد منه إلا كراهته لدماء أهل البيت وحدهم » مع أن المؤرخ وهو يترجم لأبى العباس لم يسند إليه حادثة قتل واحدة ، ومع أنه فى تاريخه السريانى المطول والمترجم إلى الإنجليزية لا يلقبه بالسفاح مطلقاً .

عبد الحميد العبادى

من وحى الفوضى !

الدكتور مبارك يناظر

للأستاذ شكرى فيصل

منذ أيام وقف الدكتور « زكى مبارك » يناظر الأستاذ « لطفى جمعة » فى موضوع : « يزدهر الأدب فى عصور الفوضى الاجتماعية » . وكان طبيعياً أن يؤيد الدكتور المبارك هذه الفكرة وأن ينتصر لها ، ويدافع عنها ؛ وبجرد حملاته على خصومها ، ويسوق عليهم القوى والحجات من منطق العقل ومنطق العواطف

وقد ود الناس لو سمعوا الدكتور خطيباً يرتجل حججه وسط هذا الحماس المضطرم ، وينتزع آراءه من قلب هذا التيار العاصف ، ويمتع سامعيه بلفتاته الذهنية البارعة . ولكن الدكتور زهد — كما يقول — فى البراعة الخطابية ، فانصرف عنها ، وأوى إلى قلمه فى ساعة من ساعات الفوضى والاضطراب فكتب خطابه فى دائرة محدودة وصفحات معدودة ونهج بيّن

وكان هذا فى الواقع صدمة شديدة الأثر ... تناثرت معها أمانى وأحلام . فالناس يعجبهم من هذه المناظرات أنها متعة من متع الفكر ، يستفيق فيها الحس ؛ ويتفتح معها الذهن وتضطرم فيها الحياة ، وتنبثق فى خلالها المعانى والخطرات كما ينبثق الماء الثر فإذا هم — هذه المرة — فى نطاق من الفكر ، وفى مدى من الجدل ، وفى مجال ضيق قد رسمت فيه الخطوط ، وعينت الاتجاهات وصدرت عن أصل مكتوب

ولئن فات الناس أن ينعموا ببراعة الدكتور الخطابية التى زهد فيها ، فقد عوضهم أن يروا نظارته المزدوجة (المتفلسفة) من فوق عينيه [1]

* * *

وأنا أشهد يا سيدى الدكتور أنك استطعت أن تأسر الناس ، وأن تأخذهم بالإعجاب بك ، والتصفيق لك ، والانسياق معك

(١) الدكتور يدعى أن لكل فيلسوف نظارتين . وأن له مثلهما ! .

فى هـذه الوديان المترعة بالحسن التى حملتهم إليها ، وهذه الربوع المليئة بالجمال التى دفعتهم نحوها ... وتلك الأجواء العبقة التى حلـّقت بهم فيها ...

ولقد حدثتَ يا سيدى حديث العواطف الثائرة والشعور الطاغى والقلب الذى كونّه النـار والصدر الذى اضطرم فيه الحب ... وسمعك الناس تقرأ لهم صفحة من بلائك بالدنيا ، وصدامك مع الناس ، وحربك مع هـذا العالم ... وأنصتوا يصغون لهذا النشيد الدائم الخالد : نشيد « الأحلام والأوهام » و « الحقائق والأباطيل » و « الأزهار والأشواك » و « العقول والقلوب » ... فنفثت فيهم ببراعتك ولباقتك السحر والعطر والجمال ...

ولم تنس يا سيدى أن تقص علينا طرفاً من حياتك ... فأنت فى كلية الآداب ، ولـكلية الآداب فى تاريخك صفحات وصفحات ... فلِم لا تنشر هذه الصفحات فى مدرج الـكلية ، وعلى عينى طلبتها وطالباتها ... ليروا مدى برّك بها ، وميلك إليها ، وغيرتك عليها ؟! ولِم لا تغتنم هذه الفرصة فتضع أيديهم على أمور وأمور تعتقد أن من واجبك أن تنبه إليها ، وتتحدث عنها ؟! ...

وحديث ليلى يا سيدى ... حتى ليلى هذه كان لها فى خطابك نصيب ، وفى موضوعك حظ ... وفى أوراقك ذكر ... وكانت ليمينك يمين ... ولجيشك جناح ...

ولقد استطعت يا سيدى بما آتاك الله من طلاقة ووهبك من اندفاع وبما أفضت من روعة ونثرت من رياحين أن تهدئ ثورات وتسكن نفوساً ، وتسكت غاضبين ... وأن تخرج من وسط الضجة الناقمة ، والصخب الثائر بالهتاف الذى ملأ الجو ، والتصفيق الذى كان يمثل نبضات القلوب الخافقة ...

وضمن لك هذا الأسلوب البارع ، وهذه القدرة الخطابية ، أن تمر بكثير من القضايا ... فتعرض على الناس طرفاً منها ووجهاً لها ؛ ثم تخلص منها إلى غيرها على أنها قضية مسلمة ، وحقيقة واقعة ... ولقد بلغت أكثر من ذلك ... حين خضت طريقاً شائكا وعراً ... وقدت الناس فيه ، وخرجت منه مظفراً ... لم تدم لك قدم ، ولم يقف فى طريقك ما يقف فى طريق الناس من عقبات وحواجز ...

ولـكن ، أليس من حق الناس ، وقد اكتسبت المعركة ، وظفرت بالنصر ، واكتسحت الخصوم الأقوياء ، أن يقفوا عند هذه القضايا التى طويت عليها كتابك أمس ... فيتحدثوا عنها ، وقد هدأ الحماس الثائر ، وسكنت الأكف المصفقة ، وتنفس الصبح عن الوضح المبين ؟! ...

* * *

نحن نحب أن نتساءل عن قولك: «إن أكثر أهل الجنة من البُـله » . كيف استطعت أن تنجو معها من إخواننا الأزهريين الذين كانوا يملأون جنبات المدرج ؛ وكيف سكتوا عنها حتى لكأنك لم تمر بها ؟ ... إن تعليلك طريف حقاً ... ولـكن هل ترضاه الآن بعد أن خرجت من ميدان المعركة ؟ !

وشيء آخر يا سيدى ... إنك تقول إن الأدب لا يزدهر فى البيئات الساكنة ، وإن رجال الدين ومن فى مثل منزلتهم لم يصدر عنهم أدب صحيح قيم ... فهل أنت مؤمن بهذه الدعوى العريضة ؟ ... وهل يستطيع أحد أن ينكر أن للبيئة الهادئة أدبها الهادئ الجميل ... وأن كثيرين من رجال الدين والمتدينين قد صاغوا من هذا الهدوء الذى نعموا به ، وهذه اللذاذات العقلية التى عاشوا فيها الوجدانيات من الأدب الرفيع ؟ !

وهل يغفل الإنسان عن الحقيقة الناصعة فى أن طائفة كبيرة من أدباء الشرق العربى فى الجيل الماضى وفى الجيل الحاضر هم من رجال الدين الذين قرأ لهم الناس الشعر ، وقرأوا لهم النثر ، وكانوا من عمد هذه النهضة الجديدة ؟ ! ...

أو ليس صحيحاً أن الأكاديمية الفرنسية تضم فيما تضم بعضاً من رجال الأكليروس ... أم أن ذلك كان بعد رجوع الدكتور من باريس ؟ ! ...

وماذا بعد ؟ إنى لأحاول أن أجوز إلى الناحية الثالثة التى استوقفتنى فى خطاب الدكتور لولا أنى أخشى أن أتهم بالعصبية أو الإقليمية أو الهوى ... وإنما هواى مع مصر ، وعصبيتى لها ... ولكن ما يمنعنا أن نكون أقرب إلى الدقة

وإلى الانصاف ؟! ... وهل يعاب الحق إن هو لم يساوق بعض الأهواء الجامحة ؟!

ما علي إذن إن أنا وقفت عند كلة الدكتور : « إن مصر أقدر الأمم الإسلامية على التفكير الدقيق وعلى التأليف » وما عليّ أن أتساءل ويتساءل معي كثيرون ، وأن نرجوا الدكتور أن يكون متئداً هادئاً ، لا يدل ولا يتيه فمصر زعيمة العالم العربي . وهي موطن أمله ، وموضع رجائه ، ومحط أمانيه ؛ وهي بلد رجاله ومنبت أبطاله ، ومبعث النور فيه ... ولكن هذا لا يمنع يا سيدي الدكتور ألا تكون الأقطار الإسلامية الأخرى قادرة على مثل هذه الدقة في التفكير ، وهذه الكثرة في التأليف ...

والذين هم في مكان القيادة يا سيدي ، ليأخذوا بيد الضعيف ، ويمدوا في قوة العاجز ، وينيروا السبيل للضال ... لا يعيبون على الضعيف ضعفه ، ولا يأخذون عليه عجزه ، لأن هذا لا يتسق مع تواضع النعمة ؛ وحق الأخوة ، وشكر الله ...

وفي الأقطار التي تعنيها يا سيدي نهضة وحركة ... وقدرة على (التفكير الدقيق) غير أن ألواناً من الجهاد تطغى على هذه النهضات ، وتكبت هذا النشاط ، وتفل هـذه القدرة ، وتحاول أن تطفئ شعل النور فيها ...

لقد كنت وقفت منذ حين أرد على الذين أعماهم الغرور في لبنان وغير لبنان ، فادّعوا الدعاوى وتقوّلوا الأقاويل وحاولوا أن يغمزوا الأدب المصري وأن ينالوا منه ، وأن يتعرضوا لطائفة كبيرة من الأدباء ... وأنا أجدني اليوم مضطراً أن أقف مرة ثانية موقفاً لا يختلف في حقيقته عن الموقف الأول ... فنحن في الأقطار الإسلامية الأخرى نؤمن بكل هذه الجهود التي تبذلها مصر ؛ ونحن نكبر هذا النشاط الذي يتراءى في أجوائها ساطعاً كالنور ؛ ونحن نغذي نهضتنا وأدبنا بكل ما ينطلق من قيثارة شعرائها ، وصفحات كتابها ؛ ونحن ننعم بهذا العطر الذي تنشره مع النسائم ، وهذا الألق الذي تشمه في سموات الفكر ... ولكننا نريد ألا نُغفَل هذا الإغفال ، ولا نُهمل هذا الإهمال

إن زعامة مصر أمر لا شك فيه ... وليس ثمة من يناقش في الأمور البديهية المسلّمة ؛ فلم نخرج بالأمور إلى مفاضلات ومقارنات لا تفيد في تقرير رأي ، ولا تنفع في الوصول إلى نتيجة ، ولا يكون من ورائها إلا اللغط ؟

وبعد ... فإن لك يا سيدي في قلوبنا حرمة ، وفي نفوسنا منزلة ، ونحن نحاول هنا أن نحملك على أن تجلو هذا الذي استغلق على الناس ، ولقد متّعتهم بصفحة رائعة ؛ ووقفت منهم موقف الخطيب الموفق ... واهتزت لك أفئدة وتولاّك الإكبار من كل جانب ... وتهافتت عليك البطاقات معجبة راضية مغتبطة ، فتقبلتها باسماً ضاحكاً مغتبطاً ... فهلاّ تقبلت معها هذه الكلمة ؟ ...

(القاهرة) شكري فيصل

النسر المهيض

للأستاذ محمود الخفيف



بعد الهزيمة

حُلُمُكَ القَيصَرِيُّ كيفَ تقضّى ... أيها السّاهمُ المُلقّى الهوانا ؟
ضاقَ عنكَ الفضاءُ طولاً وعرضا ... وتعاليتَ لستَ تحفلُ بعضا
لا ولا كنتَ أمسِ تحفلُ حبّا
لبني الطّينِ ، أوْ تهابُ الزّمانا

كنتَ بالأمسِ الامبراطورَ تُدْعى ... بعدَ نعتٍ بالكرسكيِّ الصّغيرِ
تتهاوى ألقابُ مجدكَ صرعى ... وترى منْ والوكَ كرهاً وطوعا
بينَ راثٍ وشامتٍ يتشفّى
في مصيرٍ ما مثلهُ منْ مصيرِ !

لمْ ترَ الأرضُ مثلَ عقباكَ عقبى ... هلْ رأتْ مثلَ ما بلغتَ ارتقاءَ ؟
نلتَ ما نلتَ منْ زمانكَ غصبا ... لمْ تجدْ في الحياةِ سهلاً وصعبا
ثمّ حلّقتَ تبتغي غيرَ وانٍ
أيها النّسرُ ، أنْ تنالَ السّماءَ !

قُضيَ الأمرُ ! هلْ رضيتَ القضاءَ ... أيها اللاغبُ المهيضُ الجناحِ !
كيفَ ترضى وما عرفتَ الرّضاءَ ... مرّةً أمسِ أوْ عدمتَ الرّجاءَ
أيها الواجمُ العبوسُ تلاشتْ
خُدعُ الحلمِ في يقينِ الصّباحِ

قدْ تزيّدتَ في غروركَ حتّى ... كدتَ تُنمى لغيرِ هذا الوجودِ !
وتأنّى منْ زورهِ ما تأنّى ... فتغابيتَ في مواطنَ شتّى
لشجاني برغمِ ذلكَ مرأى
شبحِ الذلِّ في العقابِ الصّيودِ !

تصفُ العينُ في محيّاكَ خوفاً ... وابتئاساً وذلّةً وانكسارا
لا يوفّيكَ غيرُ مرآكَ وصفاً ... عدتَ كالنّاسِ بلْ لقدْ زدتَ ضعفا
ليتَ شعري يا منْ هزمتَ المنايا
كيفَ تحيا ؟ هل تستطيع اصطبارا ؟

بهرَ النّاسَ في صعودكَ برقٌ ... لمْ يروْا في سناهُ منكَ العيوبا
كلُّ إفكٍ أردتهُ فهوَ حقٌّ ... وتحدّى الزّمانَ عندكَ سبقٌ
تشفقُ العينُ أن ترى الشّمسَ حتّى
تتراءى لها تريدُ الغروبا

كمْ ترى العينُ في غروبكَ ممّا ... يملأُ القلبَ منْ شتيتِ المعاني
أنتَ في الأرضِ من بني الأرضِ مهما ... ملأتكَ الخيلاءُ وهماً وعزما !
عبقريَّ الحروبِ ، كمْ كنتَ تبدو
أمسِ كالطّفلِ أطمعتهُ الأماني !

رُحتَ كالطّفلِ لاعباً بالعروشِ ... لعباً حارَ جندُ عرشكَ فيهِ !
النّجيعُ الصّبيبُ أبهى النّقوشِ ... والدُّمى منْ أسرّةٍ ونعوشِ
كرةُ الأرضِ بينَ رجليكَ حيرى
والمنايا تجري بما تشتهيهِ

ويكَ ! قدْ كنتَ كالشّهابِ التماعا ... وسناءً وروعةً وانطلاقا
كلّما زادَ في السّماءِ ارتفاعا ... وتبدّى للعينِ أبهى شعاعا
ومضى يخطفُ العيونَ سناهُ
لمْ يزدهُ المضاءُ إلاّ احتراقا

إعصار

للأستاذ أمجد الطرابلسي

هذى الليالى السودْ كيف أُقضِّيها ؟
أشدو وهل فى العودْ من وَتَرٍ مشدودْ ؟
والكأس . . . هل فيها ؟

الريحُ ، نجواها تنشدها الآفاقْ
والليلُ ، أوَّاها ، قد ذاب أمواهاً
تهوى من الأعماقْ . . .

وتلك أبوابى يلطمها الإعصارْ . . .
أطيافَ أحبابى ! أشباحَ أوْصابى !
كيف عرفتِ الدار ؟

يا ذِكَرَ الغابرْ بِينى كما بانا . . .
لا تقلقى السادرْ فى وَحشةِ الحاضرْ
دعِيه مَهمانا . . .

. . . .

هذى الليالى السُّودْ كيف أُقضِّيها ؟
أشدو وهل فى العودْ من وَتَرٍ مشدودْ ؟
والكأس . . . هل فيها ؟

(باريس) أمجد الطرابلسى

أشبهتْ مُلْكَكَ الفقاقيعُ مَعْنًى وبِناءً وَبَسْطَةً وَفناءَ
بهْرَجُ المجدِ كان زُورًا وَإِفْكًا وَبَرِيقاً يكسُو الفقاقيعَ حُسْنَا
وَهْيَ مِثْلُ الهوَاء أوْ هِيَ أَوْهَى
وَهْىَ كَالْبَرْقِ وَمْضَةً وَانْطِفَاءَ !

الخفيف

تحت الليل

للأستاذ محمود محمد شاكر

أَهِيمُ . . وقلبِى هائمٌ . . وَحُشَاشتِى تهيمُ . . فهَلْ يبقَى الشَّقِيُّ المبعْثَرُ ؟
وهلْ يهتَدِى غاوٍ أَضَاعَ حياتَهُ بحيثُ يَضِيعُ الطامحُ المُتجبِّرُ ؟
وهلْ تَسكُنُ الدُّنياويَسكُنُ صَرفُها ويسكنُ هذا النَّابضُ المتفجِّرُ ؟
وهلْ تُطفِئُ الأيامُ نيرانَ ظُلْمِها وَتَطفَأُ نارٌ في دَمِي تتَسعَّرُ ؟

لئِنْ أَبقَتِ الآمالُ منِّى ، لَطالما تَقَلَّبْتُ فى آلامِها أَتَصَوَّرُ
تنازَعنِى من كلِّ وَجْهٍ بِساحرٍ يُمَثِّلُ لى إقبالَهَا وَيُصوِّرُ
فيَهْوِى لها بعضِى وَبَعْضِى مُوثَقٌ بأشواقِهِ الأُخرى إلى حيثُ يَنظرُ
أضاليلُ من سِحْرِ الحياةِ وَفِتْنَةٌ تَهاوَى إليها مُسْتهامٌ مُسَحَّرُ

أَبَى القلبُ إِلاَّ أَنْ يَرَاها قريبةً كأَنَّ رضَاها مُزْنَةٌ تَتَحدَّرُ
يَرِفُّ شبابُ القلبِ فى قَسَماتِها تكادُ تراهُ ضاحكاً يتحيَّرُ
تُضِيءُ ليالِىَ همِّهِ بخيالِها كما سَلَّ همَّ اللَّيْلِ نجمٌ مُنوَّرُ
وهيهاتَ ! ضَلَّ القلبُ إنَّ بقاءها بقاءُ ربيعِ الزَّهْرِ أو هُوَ أقْصَرُ

سَرَتْ فِي دَمٍ يَغْلِي كأَنَّ اندفاقَهُ مِنَ القلبِ ينبُوعٌ من الوجْدِ يُسْجَر
تَمُرُّ به الأفكارُ وَهْيَ نَدِيَّةٌ فما هِيَ إلاَّ جَمْرَةٌ تَتَدَهْوَرُ
إذاسكَنَتْ فى اللَّيل كلُّ خَفِيَّةٍ سمعتُ صَليلا فى دَمِى يتحدَّرُ
فهَلْ ترحَمُ الأيامُ أو تهدأُ المنَى ؟ أَبَى حُبُّها إلاَّ شقَاءً يُدمِّرُ

محمود محمد شاكر

رسالة الفن

تأملات في الفن :

مدرســـــة الاحساس

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

— لا تنهرى القطة بهذه القسوة . كونى صاحبة إحساس وكونى ذات رحمة

— أرحمة بلصة تسرق طعامى ؟

— ليس مكتوباً عليه بلغة تقرأها هى أنه طعامك ، وإنما هو عندها رزق يسره الله

— ولكنها كانت تدب إليه مشفقة حريصة محاذرة متنبهة متلفتة يمنة ويسرة كاللص الذى يدرك حين يجترم السرقة أنه يجترم المنكر

— هى معذورة فقد تعلمت هذا التلصص منا ؛ فهى لا ترانا نفترس ما نأكل وإنما ترانا نربى الحيوان والطير ثم ندب إلى فريستنا منهما دبة اللص فنختلس حياته اختلاساً لا يسبقه صراع ، ولا يسبقه إنذار ... ولم يكن القط هكذا إلا منذ استأنس ، وقبل ذلك كان يفترس ، أو يأكل مما يخلفه كبار السباع

— وهل فى القط ذكاء يدرك به هذا كله ؟...

— إن الأمر لا يحتاج إلى ذكاء ، وإنما هو يحتاج إلى إحساس . ألست تدخلين على جماعة من الناس فتعرفين إذا كانوا على حزن أو على فرح ، أو على صدق أو على غش ؟!

— قد أعرف ذلك مما أرى فى وجوههم من أثره ...

— ومن الناس من يعرف وهو مطرق إلى الأرض ، ومن الناس من يعرف وهو مغمض العينين والأذنين ، ومن الناس من يعرف وهو على البعد لا يتمكن من نظر ولا سمع

— باللاسلكى ؟!

— نعم ؛ ففى قلب كل مؤمن جهاز يدله ، ومن هذه الأجهزة طويل الموجة ، ومنها قصير الموجة ، ومنها ما هو متصل بتيار لا ينقطع ، ومنها ما يعبأ (ببطاريات) تفرغ وتملأ ، ومنها ما يستقبل القريب فقط ، ومنها ما يستشف المحطات البعيدة ... وهكذا ، فالكون كله إذاعات واستقبالات جلت على ماركونى وإن سلست للأستاذ حسن كامل

— هذا العجوز الذى ظهر سكيراً فى فيلم العزيمة ؟ إنه ممثل ممتلىء حقاً ولكنى لم أكن أحسب أنه يعلم ما لا يعلمه ماركونى ...

— ويعلم ما لم يكن يعلمه فرويد كذلك

— ما شاء الله ! لعله اخترع آلتين تتزاوجان وتنجبان البنات من الآلات والصبيان !

— بل تمكن من إيجاد إنسان يعيش من غير غريزة فرويد فيستطيع أن يتحادث مع الطير والحيوان

— على طريقة سيدنا سليمان ؟

— إذا لم تكن هناك إلا طريقة سليمان فهو إذن على طريقة سليمان . وهو إذن يعيش بين دجاجه وأرانبه وإوزه وكلابه ومعزه ملكاً مدبراً حكيماً لا يعيبه إلا أنه يأكل رعاياه

— وكنت تريد ألا يأكل منها

— ربما كان هذا أحلى ؛ ولكن الذى يصنعه على أى حال حلال ؛ فلا ريب أنه للانسان على ما هو دونه ومن فى حماه حق الرعاية بالحكمة وله أن يتقاضاه روحاً وحياة

— أنت تجعل الذى بيننا وبين الحيوان عشرة أظن لها عندك قوانين وأصولاً

— الطبيعة فرضت هـذه القوانين والأصول ، وقد كان القدماء شديدى الاعتراف بها ، ولا يزال الفلاحون يحترمون هذه القوانين والأصول فيما بينهم وبين ما ينفعهم من الطير والحيوان ، وإن كنا نحن فى المدن قد أنكرنا هذه القوانين إنكاراً استدعى أن تقوم فينا جميعات للرفق بالحيوان تصيح فى آذاننا تطلب له رحمة كان يجب علينا أن نحسها من تلقاء أنفسنا لولا أننا قد تحجرت نفوسنا وتخشبت من شدة إقبالنا على عشرة الحديد والحجر والخشب ... فلم يعد أحد منا يعطف على حيوانه عطفه على ولده الذى فى عنقه

— هذا الذي تطلبه كثير، وهو ليس من الطبيعة في شيء

— لو لم يكن من الطبيعة لذبح إبراهيم ولده

فلو أنك كنت تشعرين بالحياة حولك، لكنت تبادلت الحس مع الحيوان ... ولكنت أدركت الحق فيما أقول ... ولكن كيف أطلب منك الإحساس بالحيوان وأنت منصرفة حتى عن الإحساس بالناس، وحتى عن الإحساس بنفسك ...

— حتى نفسي ترميني بإغفالها والبعد عنها ؟ ...

— ولست وحدك هكذا، وإنما أغلب أهل هذا العصر هكذا وأكثرهم ترديًا فيه أهل الدين، وأكثر أهل الدين ترديًا فيه وانطماسًا أولئك الذين يتعلمون في المدارس، وأكثر المتعلمين تخبطًا فيه وانتهاسًا أبناء معاهد الفن في مصر، فهؤلاء يستعرضون صورًا مختلفة للحس، ولكنهم لا يقفون عند واحدة منها وقفة التأمل والتذوق، وإنما هم يحصونها عدًا ويحسبون هذا الإحصاء علمًا، فيخرجون به إلى الدنيا ونفوسهم مشوشة مختلطة حائرة ... ومع هذا كله، فمغرورة متكبرة ...

— وهذا في مصر وحدها أو في العالم كله ؟

— أظنه في مصر وحدها ... فهم في الغرب إذا كفروا لم يكفروا حتى يؤمنوا بكفرهم، ونحن هنا ننتظر حتى يكفروا فنجري وراءهم، فإذا آمنوا آمنا، فإذا كفروا كفرنا ونفوسنا فارغة لا يعمرها إيمان ولا كفر ...

— وهل يعمر الكفر النفوس ؟ ...

— إذا كان كفرًا خالصًا لوجه الحق كذلك الكفر الذي شاع في أوربا في القرن الماضي وفي سوابقه، إذ تفتحت عيون عشاق الحق هناك على أباطيل رأوا أهل الدين يستمسكون بها، فقالوا لهم تعالوا ندع هذه الأباطيل ونحرر أنفسنا ونفكر بعقولنا، فقال لهم أهل الدين: ليست لنا عقول إذا ردتنا العقول عما وجدنا عليه آباءنا، وإنه لدين آمنا به ولن نحول عنه، فقالوا لأهل ذلك الدين: فليكن إذن لكم دينكم وليكن لنا ديننا، ثم قالوا للناس جميعًا: إنما نحن نسعى إلى الحق بعلومنا وعقولنا، وليس لنا شأن بأخصامنا، ولسنا ندعو الناس إلى جنة أو نار، فالجنة والنار حديثهم، وإنما نحن نقول إن عباد الشمس الأزرق يحمر إذا أضيف إلى حمض، كما نقول إن الهيدروجين أخف من الأكسجين وثاني أكسيد الكربون، وإن الأرض مجذوبة إلى الشمس، وإن الشمس تسبح في الفضاء وإن وإن... وليستمع لنا من يريد وليستمع لهم أيضًا، فإذا شاء أن يودع عقله بين أيديهم فليستغن عن عقله وهو عندهم حتى إذا جاءنا استحضره ... هذه حال حدثت في أوربا، ولأنها حدثت في أوربا فقد أحدثنا مثلها قولاً في كلية الآداب عندنا وقلنا إن العلم شيء وإن الدين شيء، مع أن ديننا هو العلم نفسه، وهو العقل نفسه، ولم يحدث أن احتضن يومًا خرافة، أو أظل باطلاً... وإن كان بعض أصحاب الغرض قد رشقوا في حواشيه بعض ما ينافيه، مما هو ظاهر للمبين زيفه وغرابته عن سلامة الفطرة وحكمة الحق... وقال الغرب يومًا إننا لن نؤمن بشيء حتى نبدأ بالشك فيه وتمقله بعد ذلك إلى نهايته حتى نصل إلى حقيقة أمره، فنراها فنؤمن عندئذ بها، ولم يقل الغرب هذا إلا من ثقل ما كان يراد به أن يحشره في إيمانه من أوهام، وأكاذيب ... فقلنا نحن أيضًا مثلما قال الغرب: لن نؤمن بشيء حتى نشك فيه أولاً وبدأنا نشك في أغلى تراثنا حتى لقد شككنا في قصة إبراهيم يومًا

— وهل أثبت التاريخ قصة إبراهيم ؟ العلم لا يرضى إلا بالإثبات العلمي، وللاثبات العلمي شروط

— وهل أثبت التاريخ أن الأرض كانت جزءًا من الشمس إثباتًا علميًا بالشروط إياها ؟ وهل يستطيع التاريخ أن يثبت كل حقائق الوجود ؟ إذا كان الأمر كذلك فقولي لي كيف يثبت التاريخ أن هانيبال كان يتنفس مثلما تتنفس نحن مع أن هذا شيء لم يرد في وثيقة تاريخية واحدة مستوفاة لشروط التحقق والتحقيق التي تطلبينها ! بل إنه لم يرد في وثيقة أصلاً ! أفتستطيعين أن تشكي في أن هانيبال وأباه كانا يتنفسان لأنه لا وثائق تثبت ذلك ؟ أفإذا ضاعت منك شهادة ميلادك ظننت أنك ربما تكونين قد انعدمت لأنه لا ورقة رسمية معك تعترف بك ؟ حتى لو حلف الناس بوجودك وشهد أهل بلدك بنسبك ؟

فتذوقي العلم ... وتذوقي الأدب ... وتذوقي الفن ... وتذوقي الحياة ... عيشي على مهل، تفرسي في كل شيء ... أيقظي إحساسك، ولا تقفزي بعقلك إلا بعد أن يرتاح إحساسك إلى ما أنت فيه .. فلو فعلت أنت هذا، ولو فعله الناس جميعًا، ولو فعله أهل الغرب على الخصوص، لخفت كوارث البشرية ولهان من مصائبها الكثير ... أفلو تريث أولئك الذين يخترعون الغازات السامة والقنابل والبلاوي الزرق الفتاكة بالناس، وحاسبوا عقولهم بضمائرهم واستشعروا ما تجره اختراعاتهم على إخوانهم من ويلات ...



الأسماك العجيبة

للأستاذ أحمد علي الشحات

تحدثنا في مقال سابق عن بعض الأسماك التي تجلت فيها غريزة الحنان ، فدفعتها إلى القيام بالمحافظة على بيضها والصغار التي تخرج منه ، وألممنا ببعض الطرق الطريفة التي تقوم بها هذه الأسماك في سبيل حماية نسلها . وسنرى في حديث اليوم كيف أن تلك الغريزة تدفع بعض الأسماك إلى القيام ببناء مأوى لصغارها يقيها شر هجمات عدو يفترسها ، حتى يستقيم عودها وتستطيع أن تذود عن نفسها . وأشهر هذه الأسماك هي المسماة : « ذات الأشواك الظهرية » ؛ ففي النوع ذي ثلاث الشوكات على الظهر ، يتجلى نشاط الذكر في الربيع والصيف بأن يقوم ببناء عش على أرض عمقها قليل ، والمواد المستعملة في بنائه هي النباتات المائية ، والحشائش والقش وغيرها ؛ ويشد بعضها إلى بعض مادة مخاطية يفرزها الذكر ، ولهذا العش فتحات جانبية ؛ فإذا انتهى من بنائه أخذ يبحث عن أنثى يدعوها لتضع بيضاً في هذا العش ، فإن لم تخضع ، أخذ يطاردها بعنف إلى أن تذعن لأمره . وقد يحدث أنها لا تضع من البيض الكمية التي يقنع الذكر بها ، عندئذ يبحث عن أنثى أخرى لتزيد كمية البيض ، ويقوم بتنظيم وضع البيض في العش ، ويخفره ومحتوياته الثمينة ليل نهار . وإذا اقترب غريب منه أثخنه بالجروح بفعل أشواكه ليحمي عشه ، حتى إذا كبرت صغار السمك هدم الأب الجزء الأعلى من العش ، واستطاعت الصغار أن تنطلق في الماء تسعى لرزقها



سمكة الجنة وعشها العائم

ولعل أطرف عش يبنى هذا الذي تعمله سمكة الجنة التي تعيش في الصين ، وليس هذا العش إلا فقاعات هوائية يخرجها الذكر من فمه ويتماسك بعضها ببعض بمادة لزجة ، فإذا تم بناء هذا العش العجيب العائم على سطح الماء أخذ الذكر يبحث عن أنثى ، فإذا ما وفق ابتدأت تضع البيض واحدة واحدة يلتقطها الذكر بفمه

أكانوا يبرزونها للناس كالحمى المجنونة ، حملها من الجحيم شيطان أثيم ... لو أن هؤلاء العلماء العقلاء تريثوا ، وحادثوا أنفسهم لما أطلقوا الخراب من مكامنه عاصفاً يلهف البريء وغير البريء ... ولكنهم علماء مثلما تريدين أنت أن تكوني عالمة

— وأي شبه بيني وبين هؤلاء ؟

— هؤلاء يجمعون من الحقائق ما يقتل الناس ، وأنت تجمعين من الحقائق ما يقعد على الإحساس ، وهؤلاء لو أنهم استغنوا عن استغلال حقائقهم لوفروا على الناس هلاكاً لا غناء فيه ، وأنت لو أنك استغنيت عن حقائقك التاريخية لوفرت على نفسك هلاكاً لا غناء فيه كذلك ...

— وهل أنا هالكة ؟

— وأي هالكة يا من لا تعنيك في قصة إبراهيم إلا أن تعرفي إذا كانت قد حدثت أو إذا لم تكن ، ولم تحاولي أن تتذوقيها ... مسكينة أنت ... ما أحوج أمثالك إلى أن تنشأ لهم مدرسة للاحساس !

عزيز أحمد فهمي

ويرفعها إلى العش ، ويلتصق هذا البيض بالمادة اللزجة . ولما كانت الأنثى شرهة تأكل بيضها إن لم يحمه الذكر ، فإنه يتولى المحافظة عليه حتى يفقس ، ويظل لمدة أسابيع أخرى يرعى صغاره خشية أن تنقض الأم عليها وتأكل أولادها

وفي أحد أجناس الأسماك الغضروفية المسمى Lamprey — وهي كلمة تشتق من لفظين Lambère بمعنى يلتصق ، Petra بمعنى صخر ، وسمي بذلك لأنه يلتصق بالصخور بوساطة فمه — يتعاون الأبوان في عمل جحر صغير حيث تضع الأم البيض ، ثم يحركان الأحجار المحيطة به فينتج عن ذلك أن ينهار سيل من الرمال يغطي الجحر فيصبح محجوباً عن أعين الأحياء المائية الأخرى التي تبحث عن غذاء لها

وهناك أسماك في كاليفورنيا تحمي بيضها بدفنه في رمال الشاطئ حين يجرفها المد إليه ، ويبقى هذا البيض جافاً وبعيداً عن الماء لمدة تناهز أسبوعين حين يغمر الماء الشاطئ ثانية فتكشف المياه عن البيض الذي تنطلق منه الصغار آنئذ إلى الشاطئ

الأسماك الذهبية

وهي أسماك قد حبتها الطبيعة لوناً جميلاً وذكاء تستطيع به أن تقوم ببعض الألعاب المسلية ، ولذا فإنه يحتفظ بها في أحواض للزينة ، وعلى الغاوين أن يتعهدوا هذه الأسماك بتربية أجمل الأفراد منها بعضها مع بعض حتى ينتج نسل ذو لون زاه ، وإلا فإن الأجيال الناتجة تفقد تدريجياً بهاء الألوان التي كانت لسلفها ، وقد حدث هذا فعلاً عند ما وفد على أوربا ممثلو إحدى الجزائر الواقعة في المحيط الهادي ، وأعجبوا بهذه الأسماك فحملوا حين قفلوا راجعين إلى بلادهم الآلاف من هذه الأسماك وأطلقوها في أنهارهم . ولما أن كانت محاربة الطبيعة لا تجدي نفعاً بل تنتج ضرراً ، كما حدث مثلاً حين نقل الإنسان الأرانب إلى استراليا ، فإنها زادت وقتئذ زيادة بليغة فانطلقت تبحث عن غذاء لها فلم تبق على أخضر هناك رغم ما قامت به الحكومة من مجهودات للقضاء على هذا الحيوان . فكذلك هذه الأسماك حين نقلها أهل الجزيرة إلى بلادهم ، فمع أنها فقدت بهاء ألوانها لأنه لم يعن بتربية أزهى الأفراد لوناً مجتمعة فإنها قضت على النوع الوحيد من السمك الذي كان يعيش في مياه تلك الجزيرة والذي كان يعتمد الأهالي عليه في غذائهم



مجموعة من الأسماك الذهبية

وليست هذه الأسماك بالذهبية اللون دائماً فقد يكون بعضها فضياً أو أحمر ، وقد تكون الزعنفة الظهرية عالية وتقوم بمهمة قلاع المركب حين تسبح السمكة . ولبعض هذه الأسماك عيون محمولة على نتوءات بارزة من الرأس ، وتسمى بذات الأعين التلسكوبية ، ولا تظهر هذه النتوءات إلا بعد أشهر من عمر السمكة

وتستطيع هذه الأسماك أن تعيش خارج المياه لمدة محدودة ، فقد وضع العلامة « فرنك بكلاند » بعضها وسط حشائش رطبة وأحاطها بقطعة من سجاد ، فظلت محتفظة بنشاطها مدى أربع وعشرين ساعة . ويراعى أن تزود هذه الأسماك في أحواض تربيتها بمقدار وافر من الماء ، ويتكون غذاؤها من قطع صغيرة من لحم الثيران ودود الأرض ويرقات الناموس وبيض النمل

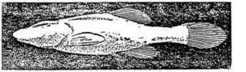
ومن الميسور تدريب هذه الأسماك على القيام ببعض الألعاب

المسلية ، كدقها ناقوساً إذا كانت فى حاجة إلى الطعام . وكيفية ذلك أن يربط ناقوس بقطعة من مادة تطفو كالفلين ، ويتدلى خيط إلى قاع الحوض الذى به السمكة ، وتتصل بهـذا الجهاز الصغير كأس بها الغذاء الذى يقدم للسمكة ، فإذا ما جاعت شدت الخيط إلى أسفل فيدق الناقوس وتنقلب الـكأس فتنزل إليها محتوياتها

ويمكن تمييز الذكر عن الأنثى فى دور التناسل بخشونة جسمه فى منطقة الخياشيم لوجود بروزات صغيرة لا توجد فى جسم الأنثى وتستطيع الأنثى أن تضع سبعين ألف بويضة ، إلا أنها عادة تضع أقل من ذلك ، فحين تكون فى الثانية من عمرها تضع ألفى بويضة وكلما تقدم بها العمر تضع مقداراً أكبر ، ففى الثالثة مثلاً تضع خمسة وعشرين ألف بويضة تقريباً ، والأنثى فى هذه الأسماك شرهة جداً حتى أنها لا ترحم صغارها بل تلتهمها ، ولذا يجب فى أحواض التربية فصل الكبير منها عن الصغير

الأسماك العمياء

هناك أسماك قد حرمت نعمة البصر إلا أنها تروح وتغدو تبحث عن غذائها بنفسها ، وقد يكون عجيباً أن تستطيع سمكة ضريرة أن تبحث عن غذائها بنفسها ، وأن تحافظ على حياتها



سمكة عميـــاء

فى وسط حيوانات ينقض أحدها على الآخر تلتهمها غذاء لها . إلا أنا نعلم أن رحمة الله قد وسعت كل شيء ، فالإنسان الضرير مثلاً قد منح غالباً قوة فى استراق السمع وفى حاسة اللمس ، فكذلك هذه الأسماك قد زودت بحساسية فى السمع وبأعضاء لمس حساسة . وقد يكون فقد البصر فيها كلياً فلا توجد عيون لها ألبتة ، وقد توجد فى بعضها بحالة أثرية ، حتى أنها تكون عديمة الفائدة كعضو إبصار . وتجريد مثل هذه الأسماك من العيون لا يلحق بها أذى لأنها تعيش فى ظلام دامس . فلو فرض أن كانت لها عيون لما استطاعت الإبصار فى هذا الجو المظلم . والظلام هنا مرجعه إلى العمق البعيد عن سطح الماء حتى أن الأشعة الضوئية لا تستطيع اختراق هذه المسافة الطويلة إلا أنه لا يتحتم أن تكون جميع الأسماك التى فى قاع البحار عمياء لأن هناك ضوءاً ينبعث فى قاع البحار ليس مرجعه إلى الأشعة الضوئية التى تخترق الطبقات العليا ، وإنما مرجعه إلى إشعاعات فسفورية تنبعث تقريباً من كل الكائنات التى تعيش فى قاع البحر ولا توجد هذه الإشعاعات فى المياه العذبة

وتتناول هـذه الأسماك غذاءها مما يعلق بسطح الماء ، ولذا تحور شكل الفم فأصبحت فتحته تقرب من السطح العلوى ، وقد يستطيع الإنسان أن يمسك سمكة منها بيده حين تصعد إلى سطح الماء إذا لم يحدث أدنى صوت ، وإلا فإنها قادرة أن تشمر بأقل حركة وعندئذ تختفى سريعاً .

أحمد على الشحات
كيميائي بمعمل السكة الحديد



قصة واقعية

حقيبـــة الذكريات

للأستاذ محمد سعيد العريان

في حارة « قصر الشوق » من حيّ الجمالية بالقاهرة ، وإلى الشمال الغربي من مسجد « أبي عبد الله الحسين » حيث لا تزال القاهرة التي بناها المعز لدين الله قائمة في هذه القباب والمآذن ، وتلك الدُّروب والمسارب ، وهذه الدُّور الرحيبة المتقادمة التي تفْضي إليها من باب إلى باب إلى أبواب ...

... هناك ، حيث التاريخُ الغابر ما يزال حيًّا ناطقاً في كل ما تقع عليه العين من مشاهد وآثار وناس ؛ كأنما اجتمع تاريخ مصر الإسلامية كله في زمان ومكان ، فلا يزال النظر يتنقل من منظر إلى منظر يذكّر بالماضي كعهده يوم كان ، من جيل إلى جيل إلى أجيال ...

... هناك ، حيث لا تزال ترى وتنظر ألواناً من الناس في سمات وأزياء وملامح ، كأنما تشهد بقايا من سلائل الفاطميين وأبناء المماليك وجند السلطان سليم ...

... هناك في هذا الحي نشأ « توفيق » ...

تراه ، فلولا طربوشه الأحمر ولسانه العربي لحسبتَه واحداً من أولئك السياح الأجانب الذين يفدون إلى بلادنا كل شتاء للدرس أو للرياضة . أما أبوه فله في الحيّ جاه واعتبار ، وإن له ميراثاً من تاريخ هذا الحي العريق يمتد إلى أجيال ، منذ دخلت مصر جيوش السلطان سليم . وأما أمه فنازحة من دمياط ، فلعلها بقية من سلالة بني أيوب . وأما هو فإنه ابن أمه وأبيه ...

ونشأ نشأة أهله على صلاح وتقوى ودين ؛ لا يعرف له طريقاً إلا إلى المدرسة أو المسجد ، فلم يعبثْ به الهوى مرة ولم يَفْترْه الشباب ...

وأتم في التعليم مرحلتين ، فأراد أبوه أن يلحقه بالجامعة ، ولكن ميراثاً في دمه كان يزين له ركوب البحر ؛ فسافر إلى انجلترا ليدرس فنون الملاحة ويتهيأ لما أراد ...

* * *

وانتقل توفيق من جو إلى جوّ : من حي الجمالية في ظلال القباب والمساجد وأضرحة الأولياء ؛ إلى دنيا الهوى ومسارح اللهو وملاعب الجمال ... ورأي ، وسمع ، وعرف ...

ونظرت إليه جارته الحسناء ، فما كان إلا نظرة وجوابها حتى كانا ذراعاً إلى ذراع ...

وعاد توفيق إلى غرفته في الفندق وقد أوشك الصبح ، وإنه من صاحبته على ميعاد ؛ وكأنما كان في حلم فاستيقظ ؛ فلم يأو إلى فراشه إلا بعد ما أخرج دفتره ليكتب في مذكراته . إنها لحادثة جديرة بأن يذكرها في تاريخه — ثم أغمض عينيه ونام ...

وعرف توفيق منذ اليوم أن في الحياة أشياء غير ما كان يعرف ! ... ...

وكان في طريقه إلى صاحبته ذات مساء ، حين اعترضتْ سبيله فتاة ؛ ونظر ونظرت ، ثم كان تاريخ ، وذاق توفيق لوناً جديداً من ألوان الحب !

وعاد إلى غرفته ليكتب في مذكراته ، وطوى صحيفة وبسط أخرى ، وكتب ...

وخلع توفيق وقاره وألقى بنفسه في تيار الحياة ؛ وتتابعت حوادثه في فصول وأبواب ، وامتلأت حقيبته صوراً وذكريات ...

* * *

وتجرّد توفيق من ماضيه ، فلم يبق في ذكراه من صورة الأمس إلا رسوم حائلة يكاد يبليها النسيان ؛ ولكن شيئين اثنين لم يغفلهما توفيق : دروس الملاحة التي هجر من أجلها وطنه وأهله ، ومذكراته التي يثبت فيها مغامراته في الحب كل ليلة قبل أن ينام !

وانتهى توفيق من دروسه ؛ فالتحق بشركة كبيرة من شركات الملاحة الإنجليزية التي تجول في البحار بين سواحل القارات الخمس ؛ وركب ظهر البحر يتنقل بين البلاد ، وفي يده « حقيبة الذكريات » يثبت فيها فصلاً من مغامراته كلما هبط ميناء من الموانى . لم ينس واجبه قطّ في ليلة من ليالي الأرض أو ليلة من ليالي الماء ...

لكأنما كان يجوب البحار على هذه السابحة لغاية واحدة ، هى أن يذوق الحب فى كل ميناء تُرسى فيه السفينة فيكتب ويصف . . . !

وذاق الحب فى كل ألوانه ، إلا اللونَ الواحد الذى يكون معه الدمع !

لقد كان يخلع حبه دائماً فى الظلام قبل أن يفارق الغرفةَ المسدَلةَ الستائر ويغلقَ البابَ وراءه ؛ فإذا عاد إلى غرفته من الفندق أو من السفينة بسط أوراقه وكتب ؛ وتنتهى قصة حب ؛ فلا يبقى منها إلا سطور مكتوبة !

ومضى توفيق على وجهه ، والشر يغرى بالشر . . . !

* * *

. . . واجتازت السفينة مضيق جبل طارق فى طريقها إلى الشرق ، وأسرَّ إليه صاحبه « ماجدو » حديثاً فابتسم ؛ ومضت السفينة بهما تمخر عباب الماء ، واجتازت الدردنيل إلى البحر الأسود ، لترسى فى ميناء « كوستازا » على ساحل رومانيا ، بلاد الجمال والحب

وهبط توفيق وصديقه إلى البر ، وراحا يضربان فى المدينة ليذوقا الحب . . . الحب الذى ينتهى فى الظلام ، فى غرفة مسدلة الستائر مغلَّقة الأبواب !

وقال ماجدو : إن فى هذا المتجر يا صديقى فتيات للحب . . . لقد أخبرنى صديقٌ زار « كوستازا » من قبل . . . !

ودخل الصديقان المتجر وراحا ينظران ، ووقف « ماجدو » يتحدث إلى بائعة المناديل وذهب توفيق إلى جارتها ؛ ونظر إليها ونظرتْ إليه ، وتحدثت عينان إلى عينين ؛ وقالت الفتاة بصوت مُطرب : هل يريد سيدى . . . ؟

ولكن توفيق لم يكن يريد شيئاً غيرها . . .

لقد ذاق توفيق من الحب ألواناً وفنوناً ، ولكنه لم يرَ من قبل مثل هذا الفن وهذا الجمال !

لكأنما كان يتنقل فى البحار من شرق الأرض إلى غربها ليدرك موعداً واعده القدر فى هذا المكان !

وإن صوتها لينفذ فى أعماقه وله رجع بعيد كأنما كانت تهتف به من وراء البحار : إلىَّ يا حبيبى إلىَّ فإنى أنتظرك منذ أزمان ! وأحس لأول مرة أنه وأنها . . . وأحست ، وتواعدا على اللقاء !

والتقيا على موعدها ، وجلسا يتحدثان ، وقال وقالت ؛ وعرفت أن صاحبها مصرى ، فصاحت فرحانة : مصرى ؟ ما أجمل هذا ! إن بيننا نسباً يا صديقى . إن أبى من تركيا ، أعنى جدّى . إننى لست رومانية خالصة ، ومع ذلك . . .

وسكتت « مارتزا » فلم تتم . لقد رأت فى عينى صاحبها نظرة زعمت أنها تفهم معناها

وأحس توفيق إحساساً جديداً منذ الساعة . إنه ليشعر كأنما يتحدث إليه القدرُ بلسان هذه الفتاة حديثاً لا يكاد يعيه . . .

وتناول يدها بين راحتيه ، ومال عليها فقبَّلها ، واغرورقت عيناه !

لقد جلس توفيق مثل هذا المجلس من قبل مرات ومرات ؛ ولكنه لم يكن فى مرة منها فى مثل حاله الليلة

هذه فتاة لم يعرفها إلا منذ ساعات ، دعاها إلى خلوة للهو والشراب فما تأبَّتْ — ماله يُحسُّ فى مجلسها هذا الإحساسَ الغامض حتى لا يكاد ينظر إليها نظرةَ رجل إلى امرأة ! وما باله يشعر فى مجلسه منها كأنه قد ارتفع عن بشريته حتى ليستشعر الندم لأنه دعاها إلى هذا المجلس من مجالس اللهو الحرام !

وشعر كأن روحاً خفيًّا يهمس فى نفسه ، وشعاعاً لطيفاً من نور الله ينفذ إلى قلبه ؛ فكأنما قام بينهما حجاب من الوهم يمنعه أن ينفذ إليها ويمنعها

وأطاف به طائف فأطرق ، ثم رفع إليها عينيه ونظر . . . وامحتْ فيه كلُّ معانى (الجنس) لتحل فيه معانى (الإنسان)

. . . وفاء إلى نفسه بعد برهة فسخر من نفسه ، وراح يقاوم هذا الطارئُ الجديد فى قلبه ويسكب فى كأسها وفى كأسه ؛ وأخذا يشربان ! . . . وانتصف الليل وصحبتْه الفتاة إلى غرفته . . . فإنها لتعرف أن عليها لصديقها حقاً ينبغى أن تتهيأ له ؛ فما يَدْعوها مثلَه من روّاد البحار إلا لمثل ذلك . . . !

. . . ولكنه . . . ولكنه فى تلك الليلة كان غيرَ من كان ، ونام ونامت كما يقتسم الأخوان الفراش ! . . .

ولما قام ليودّعها فى الصباح إلى الباب ، كانت مطرقة برأسها إلى الأرض وفى عينيها دموع !

وتلاقيا من بعد مرات ، وَدَعته إلى زيارة أهلها فلبَّى ، وتوثقت بينهما عقدة الحب على طهر وعفاف !

وذاق توفيق لوناً من الحب لم ينعم بمثله فيما فات من أيامه !

وقال لها : مارتزا ! سنفترق يا حبيبتي ؛ وستبحر السفينة بعد أيام لتضرب في مجاهل البحار ؛ فاذكريني ، واكتبي إليَّ كلما تهيأت لك فرصة !

وتغرغرت عينا الفتاة وقالت : توفيق ! بربك لا تذكر الفراق ! خذني معك ؛ إنني لا أطيق !

وفكر الفتى قليلاً ، ثم ذهب إلى الرُّبان يرجوه أن يقبل مارتزا وصيفة في السفينة . ولكن السفينة لم تكن في حاجة إلى وصيفة على من فيها ؛ فعاد توفيق إلى صاحبته ينوء بهمه !

وأبحرت السفينة بعد أيام ، وراحت مارتزا تودِّع صاحبها ، وهي تتجلد ؛ ووقفت على الرصيف تلوِّح بيدها وبجيبها ؛ ثم صفرت السفينة ، وراحت تشق الماء ، وسقطت الفتاة بين يدي أمها في غشية !

وحملوها إلى دارها ، وجاء الطبيب ؛ ولكن مارتزا كانت من الصدمة التي نالتها بحيث لا يجدي عليها احتيال الطبيب !

وجلست أمها بجانب فراشها تبكي ، ووقف الطبيب حيران ، ولم تفق مارتزا من غشيتها !

وراحت السفينة تشق البحر بحيزومها ، وعلى ظهرها توفيق وخلَّفت على الشاطئ فتاة بين الحياة والموت !

ولكن السفينة لم تكد تمضي على وجهها ، حتى جاءتها الأنباء بأن المجاز مغلق في طريقها ، فعادت أدراجها إلى كوستانزا ، حتى يصدر إليها الأمر بالمسير

وأرست السفينة ، فهبط توفيق مسرعاً إلى البر ليرى فتاته ويأنس بها ساعة ، وهو لا يعرف من أمرها شيئاً

ودق الباب ودخل ، وكانت تهذي باسمه ، وفزع توفيق ، وجرى إليها وهو يصيح : ماريتزا ! ماريتزا !

وأفاقت ماريتزا بعد غشية يومين ، وشفاها لقاء حبيبها حين عجز الطبيب

وثابت إلى الفتاة قوتها رويداً رويداً ، ولكنها لم تفارق فراشها ولم يفارقها توفيق . ومضت أيام ، وصدر الأمر إلى السفينة باستئناف رحلتها . وخاف توفيق أن ينال الفتاة ما نالها أول مرة لو علمت أنه موشك أن يفارقها ؛ فأسر الخبر إلى أمها لتحتال في أمرها ...

ومضى توفيق ليؤدي واجبه في السفينة ، وهو محزون أسوان وكان باقياً على إبحار السفينة ساعات حين جاءه الربان يسأله :

« توفيق ، إنك تعرف فتاة كانت تريد أن تعمل وصيفة في السفينة؛ فهل يمكن أن تدعوها الآن ؟ إن إحدى وصيفاتنا مريضة وقد غادرت السفينة إلى المستشفى ونحن في حاجة إلى بديل ! »

ولم يتلبث توفيق ؛ فما هو إلا أن أسرع إلى صديقته يدعوها ، وأبحرت السفينة وعلى ظهرها الحبيبان ...

وكانت على رصيف الميناء امرأة عجوز تلوح بمنديلها !

***

توفيق وأخته ، هكذا كان يعرفهما ركاب السفينة جميعاً : الملاحون والركاب

ومضت السفينة بهما تشق البحار من الشرق إلى الغرب ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ينعمان بالحب وسعادة اللقاء ، لا يظنان أن سيفرق بينهما شيء . وتمازجت روحاهما حتى ليس بينهما سر ، وسالمتهما الليالي ... ومضت سنوات ...

وكانا في أحد الموانئ حين جاءت الفتاة برقية بأن أمها تحتضر!. وكان الفراق ؛ وباعدت الحادثات بينهما ، ولكنه لم ينس ، ولكنها لم تنس ؛ فإنه ليكتب إليها وإنها لتكتب إليه !

وفعل به الفراق ما فعل حتى لا قرار له ؛ فليس له أمنية من بعد إلا أن يعود ما كان ! وتصرمت السنون، والفتى في حنين دائم وشوق لا يُغْلَب !

***

وحنَّ توفيق إلى أهله ، فآثر العمل في شركة مصر للملاحة ليكون جهاده لبلاده ؛ ولم ينس « حقيبة الذكريات » فإنها لمعه أين يكون ؛ يستروح منها نسمات الحب ويأنس إليها في ساعات الوحشة ...

ومضت الباخرة « زمزم » تتهادى من ميناء السويس في طريقها إلى « جدة » في ديسمبر سنة ١٩٣٨ وعلى ظهرها الملاح « توفيق » ثم أرستْ ، وركب الحجاج الفلك إلى رصيف ميناء جدة ، ومعهم توفيق مُحْرِماً بالحج

وطاف الحجيج بالبيت ملبين ضارعين ، ووقف الفتى حيث بدأ الناس ، لا يتقدم ولا يتأخر ؛ وحضرته الذكرى فرأى كتابه منشوراً على عينيه بما فيه من خطايا وآثام ؛ وهمَّ يرفع رأسه



هل تصبح أوربا ولايات متحدة نازية

[ملخصة من « ذى ساين » نيويورك]

إذا انتصرت ألمانيا فى الحرب الحاضرة، فليس لهذا الانتصار غير نتيجة واحدة : هى أن تصبح أوربا ولايات متحدة نازية . فهل وازن مستشارو دول وسط أوربا هذا الاحتمال ؟ أم أنه مجرد وهم وتخمين ؟ لقد طرحت هذا السؤال للبحث مع عضوين من كبار رجال السلك السياسى البريطانى . أحدهما يقيم فى (صوفيا) والآخر (ببودابست) .

فجاء فى حديث الأول عن الدول البلقانية : أن كل إنسان فى الجنوب الشرقى لأوربا يشعر بأنه مهدد بالموت من يوم لآخر . فقد أصبحت ألبانيا خنجراً مصوباً إلى قلب البلقانيين . وسواء أكانت السلم أم كانت الحرب، فلا يخال أحد أن موسلينى يخرج من هذه الأزمة، ولا ينال من الفطيرة نصيبه الأوفى . قد يكون موسلينى أكثر صبراً من هتلر وأبعد نظراً، ولكن مما لا شك فيه أنه أكثر رجال السياسة الحاليين نظراً للواقع. وإذ كان موسلينى مؤسس الإمبراطورية الرومانية الحديثة، فهو على هذا الاعتبار يعد من المتهمين بمذهب التوسع

وقد جاء فى حديث الثانى : أن ثمانين فى المائة من تجارة هنجاريا تتقاسمها دول المحور . ويبلغ ما تدفعه ألمانيا إليها فى تجارة الحبوب ضعف ما تدفعه الدول الأخرى

أما إيطاليا فتستورد ما لديها من البرتقال والليمون ، وزيت الزيتون والحرير . ولا يصح هنا أن نهمل الصلات الجغرافية والاقتصادية التى تربطها بتلك البلاد . لاشك أن هؤلاء الهنجاريين الذين يبلغ عددهم أحد عشر مليوناً ، شعب شجاع منتج ؛ ولكننا ونحن لا نعدو أن نكون أصدقاء نراقب الأمور عن كثب، لا نشك فى أن هنجاريا لا تستبقى اليوم من استقلالها أكثر مما كان للنمسا قبل الحالة التى طرأت عليها أخيراً . إن اليوم الذى يموت فيه الأدميرال (هورثى) وهو فى السبعين من عمره الآن ، سيكون علامة لتغيير جوهرى فى حياة تلك البلاد

ومن رأيى أن سادة النازى يقصرون وقتهم للسعى وراء السيادة . وهم اليوم فى حاجة إلى هنجاريا باعتبارها قنطرة بين الرين والبحر الأسود . وينقل الزيت ، والحبوب ، والخشب ،

فما أطاق ، كأنما يحمل أوزار السنين على كاهله ؛ وتندّت عيناه بالدمع ... وتذكر يوم كان ... فتى يخطو إلى العشرين ، فى حارة « قصر الشوق » لا يحمل من هم وليس له ماض ؛ فترامى على أستار الكعبة نادماً يستغفر ، وانهملت دموعه على خديه ... ...

* * *

وعادت « زمزم » تخطر على ثبج الماء ، وعلى ظهرها ركابها مهللين داعين ترف على شفاههم بسمات الرضا والاطمئنان !

وعاد توفيق إلى غرفته من السفينة راضياً مبتسماً طاهر القلب كما كان يوم ركب السفينة أول مرة من ميناء الاسكندرية منذ تسع سنين ليتعلم الملاحة

ونظر إلى متاعه فرأى ... وكأنما برزت حقيبة الذكريات لعينيه أول ما نظر لترده إلى ذلك الماضى الذى رماه عن كتفيه منذ قريب !

ونازعته الذكرى تخار عزمه وأحس فى نفسه الوهن ؛ واصطرعت فى نفسه قوتان ، فعاد ينظر إلى الحقيبة بين لهفة وندم وإشفاق ، ثم دنا منها فتناولها ومشى بطيئاً ثقيل الخطو حتى بلغ ظهر السفينة ... وطوّح بها وهو يقول : « أيها الماضى الذى كان ، إذهب إلى غير معاد ! »

* * *

... وفرغ صديقى من قصته ؛ فما كاد يبلغ نهايتها حتى اختلجت شفته وتندّت عيناه بالدمع ؛ ثم أردف :

يا صديقى ! لقد أذكرتنى ما كنت أريد أن أنساه وحسبتنى قد فرغت من أمره منذ عام وبعض عام ؛ فإنى لأحس الساعة أن الجرح الذى اندمل قد عاد يدمى ! ... لا لا ، ولكنه ماض قد انطوى وفرغت من أمره !

وصمت ساعة ، وانطفأ بريق عينيه وأطرق ؛ ثم عاد فرفع رأسه وكأنه عائد من سفر بعيد ... ثم تناول قلمه وبسط بين يديه ورقة وراح يكتب إليها :

« عزيزتى مارتزا !

« ... ... »

محمد سعيد العريان

والمعادن من الشرق إلى الغرب عن هذه الطريق . ويرى هتلر، وجورنج وفرانك هيس أن الألمان يجب أن يطعموا شيئاً غير البطاطس هذا الشتاء .

وفضلاً عن هذا ، فإن هنجاريا تعد عاملاً قوياً في نظر النازي للتوغل في رومانيا . ففي اللحظة التي يشعر فيها المنجاريون بأن قوى الريخ الحربية من ورائهم سيثيرون العاصفة على الجبهة الرومانية.

أما روسيا التي أصبح لها مركز ممتاز في البلطيق ، فهي تطمع في توطيد مركزها في البلقان . فقد كانت فكرة الحصول على نافذة تطل على البحر الأبيض المتوسط حلم رجال السياسة الروسية منذ عهد بطرس الأكبر . ومن السهل مهاجمة القسطنطينية وهي العاصمة السابقة للبلاد التركية من الناحية البرية

وإذا كانت تركيا تقف اليوم بين عدوين قويين ، فإننا لا نستطيع أن نعرف موقف الدنتشي في هذه الظروف . إن الدنتشي قد ينذر أو يحذر أو يهدد بالحرب ، ولكنه في الواقع لا يستطيع أن يتقدم أو يتحرك . إذا جد الجد تبين مواطن الخطر !

إن المشكلة الحقيقية التي يعانيها موسوليني ، هي ارتباطه مع هتلر لإلغاء معاهدة فرساي في وقت لم يستطع أن يقدر فيه موقف الشعب الإيطالي بإزاء فرنسا التي ارتبط معها بصلات لم تنفصم عراها منذ ١٢٥ عاماً .

إن الوقت والمال يعملان لمصلحة الحلفاء ، ولا شك أن الذهب في هذه الحروب الطويلة له الغلبة على السلاح . فإذا لم يقدم موسوليني لموازنة القوى ، فقد وصل حليفه أدولف هتلر إلى نهايته

البلشفيون هم فاشيون

[من مجلة « باريد »]

كتب الصحفي والمؤلف المشهور « فنسنت شيان » مقالاً في العدد الحديث من « كارنت هستوري » التي تصدر في نيويورك قارن فيه بين البلشفية والفاشية

ويقول « فنسنت شيان » في هذا المقال إن البلشفية هي في الحقيقة نوع من الفاشية في ثوب اشتراكي خداع . والفاشية قائمة على التغرير بعقول الناس بالادعاءات والوعود الخلابة والآمال التي لا ظل لها من الحقيقة ، فتخلع على العبودية المريرة ضوءاً خلاباً من ألفاظ البطولة والتضحية حتى تكون آلامها ومتاعبها سائغة المذاق إلى حد ما . وقل أن تختلف الوسائل التي تتبع في ألمانيا عنها في روسيا ، فالشعب في كلا البلدين يقوم بأشق الأعمال ويتناول عنها أقل الجزاء . وهكذا أتيح للحكومات الفاشية والبلشفية أن تخدع الملايين من المستعبدين !

إن حجر الزاوية في الحكم الفاشي هو تمجيد التضحيات القاسية التي تفرض دون حد على الأهلين ، وإخضاعهم للعبودية المقوتة بإذكاء عواطفهم نحو الرقي والتقدم . وقد سار هذا المبدأ بنجاح في روسيا كما سار في ألمانيا على حد سواء . وما زال الملايين من العمال في روسيا ، وكذلك في ألمانيا ، مسلوبين كل حق . فلا يستطيعون اختيار العمل الذي يريدونه ، أو المكان الذي يسكنون فيه، ونوع التسلية التي يرغبونها معتقدين ـ وهذا ما يسمعون على الدوام ولا يسمعون شيئاً غيره ـ بأن هذا هو النوع الرفيع من الحياة التي يجب أن تسود العالم أجمع بفضل جهادهم

ولكن الفاشية روسية كانت أو ألمانية ليست في الحقيقة نظاماً دولياً عاماً سواء من الناحية الفكرية أو الناحية العملية . بل هي على النقيض من ذلك ، فقد ثبت أنها تقدس العصبية وترفع الوطنية إلى حد لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم

وتعمل الدعاية الروسية بكافة الوسائل لإقناع الشعب بأن حكومة روسيا السوفيتية تمتاز في سائر أعمالها على حكومات العالم، وأن الشعب الروسي خير من سائر الشعوب ، وأن الجيش الروسي أفضل الجيوش التي في العالم .

لقد كانت البلشفية التي دعا إليها لينين وتروتسكي على شيء من المنطق ، لذلك كانت غير فاشية ، وكذلك كانت تحمل معنى الدولية أما بلشفية ستالين ، فتبدأ بنظرية « الاشتراكية داخل المملكة المنفصلة »

فإذا فرضنا أن الفاشية أتيح لها أن تتغلب على أوربا ، فسوف لا يستقر لها أمن أو سلام، إذ أن مبادئها القائمة على تأليه الجنس، وتقديس الوطنية ، ودعوى التفوق والامتياز سوف تصطدم بمبادئ الأمم الأخرى التي تزعم لنفسها مثل هذه المزاعم

إن الفاشية لا تحتمل دعوى التفوق أو المساواة من أي شعب من الشعوب . والعقل الفاشي يعتقد كما يقول موسليني ـ أن السلم ما هو إلا فترة بين الحروب ـ وخير ما تفعله الإنسانية هو أن تقضي هذه الفترة في التدريب والتأهب على الدوام

فإذا أصبحت أوربا قارة مقسمة بين فاشية ستالين وهتلر وموسليني ، فمعنى ذلك أن أوربا لا تخرج من الحرب إلا لتعود إليها؛ ولكن الحرب في هذه المرة لا تكون إلا بين الفاشيين المتنافسين

البريد الأدبي

كتاب كريم

تفضل إمام المسلمين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فقرأ كتاب (وحى الرسالة) ثم أرسل إلينا هذا الكتاب الكريم :

عزيزى الأستاذ أحمد حسن الزيات

إن كثير الثناء عليك ليقل بجانب ما تسديه للأدب والعربية والثقافة من جهد وفضل. فما أنا ببالغ حق الثناء عليك وإن أطلت وتأنقت، ولاحق تقديرك وإن أطنبت وجودت. وعجيب ألا يكون لوحى الرسالة فضل على الرسالة، فما هو إلا جنى أشجارها، وزهرات أغصانها، جمت فى باقة واحدة بعد أن كانت متناثرة، وقربت إلى اليد بعد أن كانت متباعدة. ولقد كنت فى هذه الفصول مترجماً صادقاً منصفاً للتاريخ فيمن ترجمت لهم من الرجال؛ وكنت مصوراً ماهراً فيما صورت من عيوب المجتمع وآلام الحياة ، وأبرزت خفايا النفوس ودبيب الهواجس حتى لتكاد تلمس وتحس ؛ وقبل هذا كنت محيطاً إحاطة دقيقة بما عرضت له من بحوث . كل أولئك بأسلوب رصين نقى الجوهر تتصل فيه بأسلافك الأولين من فحول العربية والأدب، ممن أثروا فيك فجريت على سننهم دون أن تقصد، وسرت على نهجهم دون أن تحاكى

ولست أملك بعد إلا أن أدعو لك بحياة طويلة سعيدة يدوم لك فيها الإلهام ، فتثابر على رسالتك حتى يقرأ لك الناس مجلدات عديدة من وحى الرسالة

والسلام عليك ورحمة الله

[٦ مارس سنة ١٩٤٠] محمد مصطفى المراغى

غبرات لا غبارات

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى « كتاب الحيوان » يذكر ما يعرض للكتاب المنسوخ من آفات الناسخين :

« ... ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك لإنسان آخر ، فيسير فيه الوراق الثانى سيرة الوراق الأول ؛ ولا يزال تتداوله الأيدى الجانية ، والأعراض المفسدة ، حتى يصير غلطاً صرفاً وكذباً مصمتاً . فما ظنكم بكتاب يتعاقبه المترجمون بالإفساد ، وتتعاوره الخطاط بشر من ذلك أو بمثله ... ، كتاب متقادم الميلاد ، دهرى الصنعة »

ولم يزل أئمتنا وعلماؤنا وأصحاب العقل من شيوخنا ، يردون الكلام المنقول المكتوب إلى العقل — بعد التحرى للفظه المكتوب — اتقاء لما عرفوه من تحريف الناسخين ، وانتحال المبطلين وغفلة الجاهلين . ونحن إنما نمضى على سنتهم ـ إن شاء الله ـ ولا نقف عند القول نخر عليه تعبداً لحرفه ، وخضوعاً لنصه . ولئن فعلنا لمحق الله منا نصف العقل وبقى النصف الآخر متردداً بين قال فلان وكتب فلان

... وعلى ذلك ، فقد صححنا قول ابن شبرمة فى رواية صاحب العقد الفريد فى العدد (٣٤٧) من الرسالة ، فجعلناه « ذهب العلم إلا غُبَرات فى أوعية سوء » ، ورفضنا نص العقد وهو : « إلا غبارات » . ثم رأيت فى البريد الأدبى من الرسالة (٣٤٩) كلمة للدكتور بشر فارس يرد ما ذهبنا إليه بثلاثة براهين نثبتها بالترتيب من تحت إلى فوق :

الأول : أن الحرف (غبارات) قد ورد كذلك فى جميع نسخ العقد الفريد المطبوعة ، وكذلك فى مخطوطة منه بدار الكتب يظن أنها كتبت فى القرن السادس

الثانى : أن هذا النص يصح لغة وأداء وبياناً . وإذا صح كذلك فمن الاستبداد أن يُرَدَّ على الهوى

الثالث : مخالفة نهجنا فى ذلك لنهج علماء الفرنجة (المستشرقين)

وجوابنا على الترتيب من تحت إلى فوق :

أننا أدرى بأساليب هؤلاء الأعاجم الذين اتخذوا العربية عملاً من أعمالهم — من أن نخالفهم فى الجيد من مذاهبهم ، فتحرير النص ومراجعته على جميع النسخ التى ذكر فيها وما إلى ذلك ، عمل ضرورى لكل باحث . ولكن هؤلاء الأعاجم تقعد بهم سلائقهم عن معرفة أسرار العربية ، فلم يتجاوزوا الوقوف عند النص المكتوب ، وذلك لعجزهم عن بيانها . فلما عرفوا ذلك

من أنفسهم ، كان من أمانتهم أن يتوقفوا ، فلا يقطعون برأى في صواب أو خطأ . وهى أمانة مشكورة لهم

ولكن العربىّ إذا أخذ بأسبابهم ، فلا بُدّ له من أن يهتدى بعربيته إلى ما عجزوا عنه بأعجميتهم ، فكذلك فعلنا في كلمة ابن شبرمة وقلنا « إنه نصٌّ عربىٌّ مُظلِم النور » . وبيان ذلك أنه ليس من قياس العربية أن يجمع « غبار » على « غبارات » ولا غيرها من الجموع ، وأن ابن شبرمة لم يُرِدْ تحقيرَ العلم نفسه فيجعل ما بقى منه « غباراً » ، وإنما أراد أنه بقى من العلم شىء هو من صحيح العلم ، ولكنه وقع في صدور رجال من أهل الباطل يفتونَ الناسَ يضِلّ بهم من يضِلُّ إذ يحسبونهم لا ينطقون بباطل ما داموا أصحاب فقه ودين وعلم . ولم تكن الشهادات وألقابها عرفت لعهد ابن شبرمة حتى تكون هى التى تقدر العلماء وتميزهم للناس ، وإنما كانوا يتميزون بالعلم ، فإذا لم يكن عندهم علم لم يعدهم الناسُ في العلماء . ثم إن الغبارَ لا يمكن أن يُوكى عليه في وعاء حتى يصح أن يجمل ـ ما أغلقت عليه صدورهم من بقية العلم ـ غباراً . فلو صح نص العقد لكان المراد تحقير العلم وأصحابه جميعاً

وأخيراً ، فنحن نرفض نص العقد من جهة بيان العربية وتحريرها ، ونقول : إنه لا يصح أن يروى إلا هكذا : « ذهب العلم إلا غبرات في أوعية سوء » . وإذا كان الدكتور بشر أو غيره يريد أن ينحاز إلى رأينا بنص آخر ، فلا بأس علينا أن ندله عليه فقد روى ابن عبد البر في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » — المطبوع في سنة ١٣٤٦ عن نسختين قديمتين : إحداهما للامام الشيخ الشنقيطى ، وعليها خطه في الجزء الأول منه (ص ١٥٣ سطر ٦) بإسناده إلى محمد بن سيرين (وليس ابن شبرمة) قال : « ذهب العلم فلم يبق إلا غبرات في أوعية سوء » . فهذا نص ، وهناك نصوص غيره ؛ فمن شاء أن يبحث فليبحث ، ونصيحتنا إلى من عنده نسخة من العقد ـ أى الطبعات كانت ـ فليصححها بالذى أثبتناه ، وما سوى ذلك ، فهو — كما قال — أبو عثمان : غلط صرف وكذب مصمت ... والسلام

محمود محمد شاكر

الأدب الانجليزى والروح الانجليزية

ألقى الأستاذ دوفر ويلسون ، أستاذ البلاغة والأدب الإنجليزى في جامعة أدنبره ، بعد ظهر الإثنين الماضى في المدرسة الإنجليزية بالأسكندرية ، أولى المحاضرات التى دعى إلى إلقائها من انجلترا ، وكان موضوعها « الأدب الإنجليزى والروح الإنجليزية » فاستهل كلامه بقوله إن بريطانيا استطاعت أن تمصر نصف أقطار العالم ، وإنها تعد مهد الديمقراطية ومؤسسة الصناعات الحديثة ، وفيها نشأ باكون ونيوتن ودارون . وقد تسنمت من الخيال الذروة العليا حيث يتربع شاعرها العظيم شاكسبير كأنه أمبراطور تقدم له أمم العالم فروض الطاعة والولاء

ثم قال إن الأدب الإنجليزى أقدم أنواع الأدب الحديث ، إذ يرجع عهده إلى القرن الخامس الميلادى ، أى قبل أن يجد الإنجليز والسكسونيون طريقهم إلى بريطانيا ، وبين هذا التاريخ وبين غزو النورمانديين للبلاد مضت ستة قرون ، كانت حافلة كلها بالشعر والنثر

وعرض الصفات التى كان يتحلى بها من ترنموا بالشعر في هذا الحين ، فأبان أنها كانت هى نفسها ما يتحلى به الخلق الإنجليزى الآن ، فالبريطانيون يذهبون إلى الحرب وكأنهم ذاهبون إلى مشاهدة مباراة في كرة القدم

ثم أبان أن تاريخ الأدب الإنجليزى كان دائماً تاريخاً لقوة هذه الأمة يتمشى مع انتصاراتها في مختلف الحروب التى خاضتها ،

قال : إن أهم الظواهر التى تلفت النظر فيه اعتماده على آداب اللغات في البلدان الأخرى إلى حد كبير . ولقد ظهرت في أوربا اليوم اصطلاحات كثيرة كالأوتقراطية والمنصرية ، ومقدرة الدولة على سد حاجاتها بنفسها ، فلم يلفت هذا نظر الشعب الإنجليزى ولم يثر إعجابه ، لأن قوة انجلترا تتوقف على اختلاط أجناسها ومقدرتها على إدماج العناصر الجديدة فيها . لهذا كان قليلاً أن تجد لغات ركب أصلها من عدة عناصر كاللغة الإنجليزية ، وكان أقل من ذلك أن تجد أدباً اعتمد على مختلف المصادر كالأدب الإنجليزى.

وقد رد الأستاذ ولسون هذا إلى أن الكتاب الإنجليز نهلوا من كل مورد ، وضرب كثيراً من الأمثلة : فقال : إن الشاعر

العظيم شوسر ، من أكثر شعراء الإنجليز الذين تأثروا بشعر الفرنسيين والطليان . ومنذ عهد الإصلاح إلى مستهل القرن الثامن عشر كان الأثر الروماني والإغريقي هو السائد في الأدب الإنجليزي. وفي خلال هذا القرن تلقى الإنجليز أصول الأدب على الفرنسيين . وفي أوائل القرن التاسع عشر كانوا يدينون لألمانيا إلى حد كبير . وفي الوقت الحاضر تدين الدراما الإنجليزية بوجودها للشاعر النرويجي ابسن . وكذلك تأثر كتاب الروايات القصصية من الإنجليز بالكاتب الروسي الشهير دستوفسكي

ثم قال إنه إذا صح القول بأن انجلترا منفصلة عن أوربا ، فإن هذا الوصف لا ينطبق عليها في الواقع من ناحية الأدب . وقد يكون من متناقض القول أن شعباً كالشعب الإنجليزي عرف بأنه أنجب في ميادين السياسة والعمل والتجارة رجالاً أفذاذاً لا يكون أيضاً من أوائل الشعوب في ميادين الأدب بجميع أنواعه

وذكر المحاضر بعد ذلك أن انجلترا لم تتزعم دول العالم في الصناعة والتجارة فحسب ولكن في الرياضة أيضاً . وأن الإنجليز في الوقت نفسه أكثر الشعوب تديناً . وقد يكون أهم ما يلفت النظر عند زائر انجلترا أن يلاحظ أن الشعب الإنجليزي شعب لا يعرف اللهو ، أو هم كما يسمونهم « يلهون بحزن » ولكن قلما يوجد شعب آخر في بساطة الطفل ووداعته مثلهم

وبعد أن ذكر الأستاذ ويلسون أنه يجوز أن تتحد هذه العناصر من الرياضة والشعر والخوف من الله ، وتؤلف ظاهرة غريبة ، فإن رجال الأدب في انجلترا هم بدون شك من أشد الناس تمسكاً بأهداب الدين والفضيلة قال إن الفلسفة والفضيلة كانتا على الدوام رائد الشعراء الإنجليز فيما أنتجوا . فهذا ملتون كان يعمل في كتاباته ليظهر للناس طريقهم إلى الله . وكذلك كان يفعل من قبله لانجلاند وسبنسر وبوب ووردثورث وتيسون وبراوننج وغيرهم ؛ حتى شيللي ، ولم يكن يعترف بالله ، كان يبشر في كتاباته بإنجيل اجتماعي جديد . وقد ابتدأ ذلك منذ العصر الفيكتوري ، وما زال حتى الآن يحمل لواءه أشهر الكتاب الحاليين أمثال برنارد شو وولز وهكسلي

وهناك من يتهم هذا النوع من الكتابة بأنه ليس من الأدب في شيء ، ولكن الأدب لم يكن في يوم من الأيام يتوقف على عقيدة الشخص ، وإنما يتوقف على أسلوبه ، وهذه كتابات بانيان التي لا تخرج عن أنها دعاية دينية ، فهي تعد عملاً أدبياً عظيما

ولما كان الإنجليز في جميع العصور يدينون سياسياً إما بمبدأ الأحرار ، وإما بمبدأ المحافظين ، فإنه ليس غريباً أن كان لهذين المبدأين شأن أي شأن في الأدب الإنجليزي .

وقد كان شوسر من أصحاب المذهب الأول ، وقد عرف عنه العطف على كل مخلوق ، وإحساس رقيق ، واهتمام خاص بالحياة العادية للرجل العادي في حين كان معاصره لانجلاند على نقيضه، إذ كان من أنصار الأحرار الذين يعتقدون بالمثل الأعلى للإنسان

وأما من وجهة شكسبير ، فهي تماثل شوسر ولكن على نطاق أوسع ، فقد كان شكسبير من أشد رجال الأدب الكاثوليكيين في العالم تديناً

وفي نفس هذا العصر ظهر ميلتون أكبر شاعر بروتستنتي دعا إلى التعصب لمذهب الراديكالية البريطانية في أوسع حدودها . وكان يعتقد بالقضاء والقدر في حياة الإنسان .

وبعد أن أبان المحاضر أن هذه التفرقة نفسها قائمة بين أشعار وردزورث وشيللي ، ختم كلامه بقوله : لقد كان للحرية في كل عصر أنصارها المتحمسون؛ ومع أن ثمن الحرية غال مرتفع، فإن انجلترا قبلت أن تدفعه عن طيب خاطر ولو كلفها ذلك دم أعز أبنائها . ولكي يفهم الأجنبي الروح الإنجليزية على حقيقتها يجب عليه أن يدرس الشاعر وردزورث الذي تتميز أشعاره بإنجليزيتها عن جميع الشعراء

وكما حارب الإنجليز في عام ١٩١١ الدانمركيين وهم لا يحملون لهم حقداً ولا ضغينة ، كذلك نرى هذه الروح هي المتغلبة عليهم في جميع حروبهم ، وهي نفسها الروح التي تتسلط عليهم في حربهم الدائرة رحاها اليوم

اختراع جديد في طب الأسنان

نشرت المجلة الطبية الأمريكية أن طبيب أسنان من ميشيجان وفق إلى إجراء عمليات جديدة في جراحة الأسنان ستحدث قريباً ثورة في عالم طب الأسنان. وتقول المجلة المذكورة إن الطبيب يخلع الأسنان الفاسدة والمسوسة من أفكاك مرضاه؛ وبطريقة خاصة

من اختراعه ردها إلى مكانها من الفك بعد تنظيفها وإزالة الأجزاء الفاسدة والتي مشى فيها السوس

وتعاد السن إلى التجويف وتستقر في مكانها الأصلي بواسطة جبيرة من الذهب حتى تنمو حولها اللثة والنسيج . والأسنان التي تعد بهذه الطريقة تصلح للعمل مدة أقلها عشر سنين

حول آلهة الكعبة

قرأت العدد الممتاز من رسالتكم الزاهرة الخاص بذكرى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأقدم لكم جميل الشكر والثناء على عنايتكم بهذه الذكرى المباركة ، كما أتقدم بالحمد لحضرات الكتاب الكرام الذين عاونوا على إصدار العدد بما جادت به قرائحهم . بارك الله فيكم وجزاكم عن نبيه وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء

ولقد استوقف نظري عنوان قصيدة الأستاذ الشاعر محمود حسن إسماعيل « آلهة الكعبة » بإضافة آلهة إلى الكعبة . فالتحاور في القصيدة محصور بين مناة واللات والعزى ، وليس واحد من هذه الثلاثة من أصنام الكعبة ، بل لم يكن واحد منها داخل الكعبة ولا حولها . فمناة كان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة . واللات كانت بالطائف وكانت موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم . والعزى كانت بواد من نخلة الشامية يقال له حُراض بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة : راجع كتاب الأصنام لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي : ص ١٣ و ١٦ و ١٨

وقد يعتذر عن هذا الإبهام بأن إضافة آلهة إلى الكعبة لأدنى ملابسة كما يقول النحويون في مثل هذا ، كما قد يقال أيضاً إن ما تضمنته القصيدة إنما هو أسطورة غير واقعية بل خيالية فاضت بها قريحة الشاعر ، وقد أشرتم إلى هذا في الرسالة . غير أنه حدث أن بعض طلاب العلم كانوا يزورونني وأحدهم يسمعني بعضاً من المقالات والقصائد من عدد الرسالة حتى قرأ « آلهة الكعبة » فتبادر إلى ذهن البعض منهم أن هذه الأصنام كانت في الكعبة فصححت لهم ما ظنوا . وتبين لي أن ما اشتبه على هؤلاء ربما اشتبه على غيرهم ؛ لذلك رأيت أن أكتب إليكم هذه النبذة إيضاحاً وكشفاً لهذا الإبهام غير المقصود :

ومما يناسب هذا البحث ما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت « الكعبة » وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاتلهم الله ! أما والله لقد علموا ما اقتسما بها قط ، ثم دخل فكبّر في نواحي البيت . (مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٣٤)

محمد صبري

إلى الأستاذ إسماعيل أحمد أدهم

قرأت مقالك في عام الفيل وميلاد الرسول فأعجبني رأيك في تحقيق ذلك الميلاد ، وكنت موفقاً كل التوفيق في تأييدك وجود الفيل في حملة الأحباش . وقد أشكل علي في مقالك أمور أعرضها عليك لتتفضل بإيضاحها

١ — ذكرت أن النجاشي كان يرى أن فكرة هذه الحملة خيالية لا يمكن تحقيقها ، فكيف يعلم النجاشي هذا وهو من شعب فطري ، ثم يغيب على الروم وهم أهل علم وثقافة ودراية بفنون الحرب وطبائع البلاد ؟

٢ — وذكرت أن مساعدة النجاشي للروم لم تكن ممكنة من جهة الخليج الفارسي ، لأنه لم يكن له أسطول ينقل به جنوده إليه ، مع أنك ذكرت أنه كان للروم أسطول بالبحر الأحمر والمحيط الهندي ، وأن هذا الأسطول هو الذي نقل جنود الأحباش إلى اليمن ، وكانت الأفيال تأتي به إليهم من الهند

٣ — وذكرت أن الأحباش تعرضوا للحجاز بتحريض الروم ، ثم عدت فذكرت أن الأحباش لم يكن قصدهم التعرض للحجاز ، وإنما كانوا يقصدون مساعدة الروم

٤ — ويفهم من كلامك أن المرض والوباء الذي حصل للأحباش عند وصولهم إلى مكة لم يكن بعناية إلهية ، وأن أهل الحجاز هم الذين فهموا ذلك حين فهموا خطأً أن الروم يقصدون هدم الكعبة ، ولكن الأمر في هذا لا يقف عند فهم أهل الحجاز فقد جاء القرآن الكريم موافقاً لما فهموه من تلك العناية ، وذلك في قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل) الآيات

٥ — وقد جعلت الرواية اليونانية تناقض الرواية العربية في سبب حملة الأحباش ، مع أنه لا تناقض بينهما ، والشيء

الواحد قد تتعدد أسبابه ، ولا يضير الرواية العربية أن تجهل أمر سفير الروم إلى النجاشي ، لأن ذلك جرى بين النجاشي وجوستنيان ، ولم يكن العرب في ذلك الوقت في حالة تمكنهم من الاطلاع على هذه السفارة (قارئ)

« سؤال »

جاء في مقال الأستاذ الكبير عبد الله عفيفي بك بالعدد الممتاز « ميراث لا وارث له » :

« وما كان أقوى تلك الطفلة الناشئة عائشة بنت أبي بكر حين اقتحم رجال قريش عليها البيت . . . ولطمها الشريف النذل أبو جهل بن هشام لطمة أطارت قرطها من أذنها لتتكلم فما نطقت إلا بعبرة واحدة سقطت من عينها على الأرض » .

وجاء في قصيدة الأستاذ محمود الخفيف بالعدد نفسه « في الطريق إلى يثرب » :

حيّيا أسماء كلطيف الرفيق ... تسرق الخطو على هول الطريق
... ...
يا ابنة الصدّيق هل من نبأ ... للرفيقين عن الشرك وثيق
أمسكي عن لطمة فاجرة ... طرحت قرطك من وغد صفيق

فيتضح من مقال الأستاذ عفيفي بك أن لطمة أبي جهل كانت لعائشة بنت أبي بكر ، ومن قصيدة الأستاذ محمود أن اللطمة كانت لأسماء . فعلى أي شيء جاء هذا الاختلاف ؟ أسَهَا أحدهما فأورد القصة على غير ما هي ، أم ماذا ؟

(صا الحجر) السيد محمد أحمد الفقي

(الرسالة) : الصحيح أن اللطمة كانت لذات النطاقين أسماء ، أما ذكر عائشة فهو سهو

« جواب »

سأل (قناوي) عن كلمة وردت في كتاب « تاريخ الأدب » الذي ألّفه مؤلفو وزارة المعارف العمومية ! حيث زعموا أن أبا دهبل الجمحي من شعراء المخضرمين (بين الجاهلية والإسلام) وقالوا إنه مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبياته التي أولها :

إنّ البيوت معادنٌ، فنجاره ... ذهبٌ وكلّ بيوته ضخمُ

ونحن نقول إن الأساتذة المؤلفين قد بلغوا الجهد وسلكوا المحجّة واهتدوا بأساليب الثقات من أصحابهم في الاستنباط والتحقيق العلمي ، فأهدوا إلى العربية ما كانت تجهل من ميلاد أبي دهبل الجمحي ! وكان طريقهم إلى ذلك أنهم رأوا في شرح الحماسة للتبريزي ج ٣ ص ٧٥ ما نصه :

« قال أبو دهبل الجمحي – وقالوا يمدح النبي صلى الله عليه وسلم» ثم ذكر الشعر، فاستخرجوا من ذلك أن أبا دهبل مخضرم. وهذا نهايةٌ في التحقيق

أما تحقيقنا فهو يخالف ما ذهبوا إليه، فإنك إذا قرأت شرح هذا البيت رأيت التبريزي يقول في شرح قوله « وكلّ بيوته ضخمُ » : « يعني ما اكتنفه من أخواله وأعمامه من بني هاشم وأمية ومخزوم » والتبريزي لا يجهل بلا شك أن بني أمية وبني مخزوم ليسوا من أعمام رسول الله أو أخواله ، وهو يعلم بلا شك أيضاً أن الأبيات في مدح عبد الله بن عبد الرحمن ابن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي (ابن الأزرق) كما جاء في الأغاني ، وهو الذي أعمامه وأخواله من بني هاشم وبني أمية وبني مخزوم

وإذن فصوابُ العبارة في التبريزي على ما نظن : « وقالوا : وهو أحق بمدح النبي صلى الله عليه وسلم » فوقف عليها بعض النساخ فلم يفهمها فحذف قوله « وهو أحق » ، فصار الكلام « وقالوا يمدح النبي . . » وصار أبو دهبل في زماننا هذا مخضرماً بعد أن عرفه علماء العربية كل هذه القرون شاعراً أموياً .

(م)



من التاريخ الاسلامي

تأليف الأستاذ على الطنطاوى

« يصدر فى الأيام القريبة هـذا الكتاب للأستاذ على الطنطاوى مصدراً بهذه المقدمة البليغة. ونحن نسارع إلى نشرها تعريفاً بالكتاب وتشويقاً إليه »

لو رجعت إلى أصول هذه القصص التى يشتمل عليها هذا الكتاب، لرأيت أنها لا تجاوز بضع صفحات « من التاريخ الإسلامي» متفرقة فى مواضع منه شتى، وفصول مختلفة لا ينتبه إليها القارئ، ولا يقف عليها. وليست أروع ما فى تاريخنا ولا هى من أروع ما فيه، وإنما هى أخبار عادية استطاع قلم الأديب أن ينسج منها هذه القصص وأن يعرضها على الناس شيئاً جديداً أو هو كالجديد. فكيف إذا تولاها قلم أقوى من هذا القلم؟ وكيف إذا اختار لها مواقف من التاريخ رائعة عظيمة حقاً؟

وإذا كان أصل هذا الكتاب الذى تفرع عنه، وأساسه الذى بنى عليه، بضع صفحات من هذا التاريخ العظيم فكم صورة رائعة، وكم قصة بارعة، وكم من الآثار الأدبية الخالدة يمكن أن تخرج من هذا التاريخ؟ أما إن ذلك ليزيد عن العدد ويجل عن الحسبان، وإن السيرة وحدها لتمد الأدب بألف كتاب أدبى ... ولكن أدباءنا لم يردوا هذا المورد!

وليست هذه القصص كاملة ولا هى الثمرة الناضجة لهذه الدوحة الباسقة، ولكنها بواكير ثمارها، وإن فيها لنقائص وعيوباً أدرك أنا الآن بعضاً منها، وإن عشت وقدر لى الله أن أسلك سبيل الأدب سلوك المسافر المطمئن، لا المتعثر الضال، وأراحنى من همّ الكد للعيش ونكد الحياة النمطية الجافة « حياة الوظف ». فلأخرجن على الناس بقصص من التاريخ تبكى منها عيون الصخر ويرق قلب الجماد. وإنى لأقرأ فى التاريخ ما يزلزل شعورى وهو على اختصاره وجموده على أساليب العلماء، فما له لا يصنع الأعاجيب إذا فصل ووسع وطار فى آفاق الأدب؟

وإن لنا من تاريخنا لثروة ما لأمة مثلها. لنا منه عالم يفيض بالحب والإخلاص والنبل والتضحية والبطولة والخلود فيه مآس وفيه ملاحم وفيه من كل فن من فنون الأدب.

ولكن عيب هذا التاريخ أنه لنا، وأنه ليس لأمة من «تلك» الأمم الحية، وأن علماءنا — أعنى الفقهاء والمحدثين والمفسرين — قد انصرفوا عنه جملة، وكانوا يعدونه إلى عهد قريب من فضول الكلام، ويرون الاشتغال به مضيعة للوقت. ثم إنهم إذا عرفوه لم تفدهم معرفتهم به، فيما نحن بصدد الكلام عنه، لأنه ليس لأكثرهم أقلام، ولا بصر لجمهورهم بالأدب، ولا يعرفون من البلاغة إلا حدودها الجافة وتعريفاتها الجامدة التى بقيت فى الكتب واشتملت عليها « شروح التلخيص » فهم يعرفون الاستعارة وأقسامها ولكنهم لا يستعيرون؛ ويحفظون أنواع المجاز ولكنهم لا يتجوزون. فاترك العلماء وقف على الشبان الذين اشتغلوا بهذا الفن، وكانوا هم المرجع فيه وكانوا معلميه، تر أكثرهم قد تلقى تاريخنا على غير أهله، وقرأه فى غير كتبه، ولم يأخذ من التاريخ رواياته، ولا عن الرجال نقولهم، ولكن أخذ آراءهم وأغراضهم وحسب أن التاريخ يكون بالعقل، وأنه يرتجل ارتجالاً، ونسى أو هو لم يعرف أن العقل لا يصنع فى التاريخ شيئاً إن لم تكن معه الرواية، وأن القيمة فيه للنص الصحيح، وأن نصوص التاريخ عندنا لا عند غيرنا ... والبلية بهذا النفر من الناس كبيرة. ثم إن هؤلاء كلهم أو من عرفنا منهم لا يكتبون ولا يبينون عن أنفسهم، وأنهم فى البعد عن الأدب كالعلماء، إلا أن العلماء حفظوا قواعد النحو والصرف والبلاغة، وقرأوا فيها الشروح الضخمة والحواشى، وهؤلاء استراحوا من ذلك كله . . . بقى الأدباء فاسأل الأدباء، أن ما حال بينكم وبين التاريخ وما منعكم أن تمدوا أيديكم إلى هذا الكنز العظيم؟ وانظر ماذا يقولون!

* * *

على أن من الإنصاف أن نقرر أن هذا التاريخ الذى انصرف عنه علماؤنا وعدّوه من فضول الكلام، وأخذه شبابنا من غير مأخذه، إنما هو التاريخ السياسى، تاريخ الملوك

والأمراء ، والحروب والوقائع ، وهو أضعف جانب فى تاريخنا — على قوته وعظمته إذا قيس بتواريخ الأمم الأخرى — أما التاريخ القوى حقاً ، الحافل بالأمجاد الطافح بالعظمة فهو تاريخنا العلمى الذى عنى به العلماء بعض العناية ، وانصرف عنه الشبان الانصراف كله ، ولم يكونوا منه فى قليل ولا كثير ، لأن دراسته تحتاج إلى آلات لا يملكونها ، من اطلاع على اللغة وتمكن منها ، إلى معرفة بمصطلحات أهل الحديث والفقه ، إلى وقوف على التفسير ومعرفة بالأثر ؛ فإذا عرضوا له على جهل بهذا كله ، فإنما يعرضون نفوسهم إلى الفضيحة وانفضاح الجهل كما افتضح من هو أعلم منهم ، من « أولئك » القوم ، وانفضح جهلهم ، وظهرت أغراضهم . إن تاريخنا القوى حقاً العظيم الماجد هو التاريخ العلمى ، تاريخ الرجال . وابدأ فيه بسيرة سيد البشر ومعلم الخير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التى ألفت فيها المئات من الكتب ، ثم عرج على سير الصحابة فاقرأها فى الإصابة أو فى أسد الغابة أو فى الاستيعاب ، ثم انظر العمل الذى قام به مؤرخو رجال الحديث ، ومبلغ ما وصلوا إليه من الإحاطة والتدقيق والصدق ، وانظر هل أفلت منهم خبر ، أو خفيت عليهم حقيقة . وهل صنع علماء أمة كانت أو تكون كالذى صنعوا ، أو تصوروا إمكان هذا الصنيع المعجز الهائل ؟ لقد صنفوا فى الرجال الكتب الجامعة ، وأفردوا الضعاف والمتروكين بالتأليف ، ووضعوا الكتب فى ضبط الأسماء وبيان ما تشابه منها وما اشتبه وبحثوا فى تواريخ الوفاة ، وحققوا الأسانيد ... ثم انظر ما ألف من كتب الرجال فى سائر العلوم والفنون ، كطبقات الأطباء وأخبار الحكماء ، والنحاة ، والأدباء ، وفى المذاهب كتاب السبكى الجليل القيم ، طبقات الشافعية ، والديباج فى أعيان المذهب المالكى ، وطبقات الحنابلة والحنفية ، وما ألف منها فى المدن كتاريخ بغداد الذى ترجم لكل من دخل بغداد فلم يبق ولم يذر ، والكتاب الذى لم يؤلف فى بابه مثله كتاب ابن عساكر العجيب الذى عجزت دمشق عن طبعه ونشره ... وما ألف بحسب العصور ، وعندنا سلسلة كاملة لأعيان كل عصر من العصر السابع إلى الثانى عشر الهجرى ، وما كان منها جامعاً كوفيات الأعيان الكتاب النفيس الممتاز ، وغير ذلك مما يتعسر الإحاطة به ، وتقصى خبره فى مثل هذا المقام ، وفى كل صفحة من هذه الكتب مبعث إلهام للأديب ، وأصل قصة للكاتب ، وكنز من كنوز العقل والقلب لا يفنى

ومعلمو التاريخ لا يدرون بهذه الكتب ولا يعرفونها ، بل هم ينفّرون منها على جهل بها ، وينعتونها بالكتب الصفراء . وإذا عرفوا المشهور منها لم يعرفوا التفريق بين رواياته ، ولا دراية لهم برجاله . وإذا وقع أحدهم على خبر فى تاريخ الطبرى أو ابن الأثير طار به فرحا ، يحسبون أن كل ما بين دفتى الطبرى فى درجة واحدة من الصحة ، مع أن الطبرى يروى القوى الثابت من الأخبار وما دونه ، وهو حين يذكر سند الرواية يسقط عن نفسه تبعتها . وعليك أنت أن تعرف السند الموثوق به من السند الواهى — ومن الرجال من هو معروف بالكذب كابن الكلبى — ومع ذلك فقد رأينا مدرساً من « هؤلاء » المدرسين يعتمد عليه فى رواية عرضها ابن الكلبى بصيغة التضعيف ، ويقرر لتلاميذه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسجد للأصنام فى الجاهلية ، وأن ذلك معنى قوله تعالى : « ووجدك ضالا فهدى » . ومنهم من ادعى حل الخمر عند فقهاء العراق ظناً منه أن النبيذ معناه الخمر المعروف . . .

ومما يقع فيه « هؤلاء » المعلمون الذين يحملون يداً فيها « الشهادة الرسمية » ورأساً مثل فعل (قال) فى الصرف ... أنهم لا يعرفون درجات الحديث ولا مصطلح أهله . وهم لذلك يروون الحديث الموضوع على أنه صحيح ، ويأخذون الأحاديث من كتب الأدب والمحاضرات . ولقد قرأت فى كتاب لأديب من أدباء هذا العصر نسبة حديث إلى الصفحة (كذا) من كتاب الأغانى ، وإثباته ذلك فى حاشية الصفحة كما يعزو العالم إلى « البخارى » أو « مسلم » !

وأكثر « هؤلاء » المعلمين ، يدرّسون التاريخ بالهوى ، ويسيرون فيه بالغرض ، ويضعون النتائج أولاً ، ثم يختلقون لها المقدمات ، فعل أساتذتهم من المستعربين . فالشيوعى منهم يدرس التاريخ بهوى شيوعيته ويسوقه مساق هواه ، ولو جار على الحق أو خالف الرواية ؛ والقومى « النازى » يبحثه بقوميته وإلحاده ، فيكذب فيه على الواقع بقوله بأن العرب كانوا بالغين ما بلغوه ولو لم يأتهم الله بالإسلام ، وأن الإسلام فرع من العروبة ، ويموّه على

ضفاف

رضا شـــاه بهلوى

تأليف الأستاذ أحمد محمود الساداتى

بين مصر وإيران صلات تاريخية عريقة ، وقد توثقت هذه الصلات بالمصاهرة الكريمة بين الأسرتين الخالدتين ، وكان أن انتهزها الكتاب والباحثون فرصة حميدة للاشادة بمجد الشعبين ، وتمكين التعارف بينهما تعريفاً رباطه الدين والعلم ، وقوامه الآمال المشتركة ، والأغراض المتفقة ، وغايته المودة والأخوة الكاملة

وهذا الكتاب الذى كتبه الأستاذ الساداتى إنما هو ثمرة من تلك الثمرات الطيبة ، فقد أراد أن يشيد برجولة رضا شاه بهلوى وما قام به نحو شعبه من ضروب الإصلاح ، ولكنه رأى من حق البحث أن يرجع إلى الماضى السحيق يستقبل تاريخ إيران من عهد الإمبراطورية القديمة ، ثم الإمبراطورية الوسطى ، ثم ما كان من شأن آل ساسان ، وما زال يتدرج فى البحث حتى انتهى إلى نهضة إيران الحديثة ، وما كان يصطرع فيها من نزاع بين الشرق والغرب ، والجمود والتقدم ، والرجعية وروح الإصلاح ؛ ثم ما كان من جهود رضا شاه بهلوى فى إنقاذ بلاده والسير بها فى سبيل الرقى والتقدم حتى بلغت إلى ما وصلت إليه وما زالت تواصل الجهود ...

فهذا الكتاب فى الواقع هو كما يقول الدكتور عبد الوهاب عزام فى تقديمه : يتضمن طرفاً من تاريخ إيران وجغرافيتها وأحوالها الحاضرة ، وهو مجدى كثيراً على قراء العربية فى التعريف بأمة إسلامية لها مكانتها فى ماضى الإسلام وحاضره ، ويعد فاتحة طيبة لكتب أخرى تفصل الكلام فى تاريخ إيران ومكانتها بين الأمم عامة ، وصلاتها بالأمم الإسلامية خاصة ، وحسب الأستاذ الساداتى أنه السابق

ولا شك أن الأستاذ الفاضل قد وجد عناء كبيراً فى كتابة كتابه ، لأن المصادر التى تناولت تاريخ إيران فيها كثير من الشبهات وبعضها قد كتب بروح التعصب ، وخصوصاً ما كتبه الاستعماريون الذين حقدوا على إيران فى نهضتها وأزعجتهم جهود رضا شاه فراحوا يزيعون عنه الأراجيف والأكاذيب ، وقد اجتهد الأستاذ فى الابتعاد عن هذه الشبهات ، وحرص على تخير الصحيح الثابت من الروايات ، وهذه لا شك مهمة تحتاج إلى كثير من الدكانة والحذر والفطنة التى تنفذ إلى ما وراء الظواهر .

ضفاف المقول بقوله : « نحن عرب قبل أن نكون مسلمين » مع أن العرب ما كانوا شيئاً لولا الإسلام ، وأن تاريخ العرب الحق يبدأ بسيد كل عربى خاتم الأنبياء محمد رسول الله إلى الناس كافة، الذى قال: «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» . وقديماً حرف التاريخ ذوو الأغراض والنحل وصرفوه إلى غاياتهم وأغراضهم .

***

وبعد فهذه طائفة قليلة من القصص التاريخية ، ليست كاملة ولا مبرأة من العيوب ، ولكنها باكورة الثمار وهى مكتوبة فى أزمنة مختلفة ففى أسلوبها تفاوت ، ولعل الله يوفق إلى الثمار الناضجة ، ويكتب لنا والمشتغلين النجاح ، ويلهم الكسالى العمل ، ويجعل منا أمة كالأمة التى كتبت بفعالها هذا « التاريخ العظيم » .

الثانوية الأولى (دمشق) **على الطنطاوى**

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾